من بلاغة التمنى فى البيان النبوى

د. إبراهيم حسن أحمد مدرس البلاغة والنقد في الكلية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح العرب لسانا وأوضحهم بيانا وأعذبهم نطقا، وأسدّهم لفظا، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طريق الصواب[١] سيدنا محمد الهادى الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد

فقد تنبه العلماء قديما وحديثا لما فى بيان النبوة من كنوز ودقائق هى حرية بأن تكون محط اهتمام الباحثين، وأن يبذل فيها الجهد وتستنهض لها الهمم، فها هو ذا الجاحظ يقول فى كلامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ: هو الكلام الذى قل عدد حرفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف،...استعمل المبسوط فى موضع البسط، والمقصور في موقع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقى، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة[٢]، ويقول الرافعى: هو كلام كلما زدته فكرا زادك معنى، وتفسيره قريب كالروح فى جسدها البشرى، ولكنه بعيد كالروح فى سرها الإلهى[٣]، ويقول أيضا: ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويثقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه....،وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أرك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء[٤]

وعلى الرغم من كثرة ما كتب فى الحديث الشريف من بحوث ودراسات إلا أن معظمها يتجه لناحية التشريع أما الدراسات التى تتجه إلى نحو الحديث وصرفه وبلاغته فإنها قليلة ولا تعد إلا إشارات بجانب ما يمكن أن يجده الدارسون فى لغة الحديث الشريف من كنوز لا تزال تنتظر جهدهم.

ومن هنا أردت أن أسهم بجهد فى خدمة اللغة العربية لغة الحديث الشريف فاتجهت نحو التمنى فى البيان النبوى؛ لعلمى أنه يرقى لأن يكون مجالا خصبا لدراسة

---

(١) ابن الأثير: النهاية فى غريب الحديث والأثر ، ت طاهر أحمد الزاوى، ط أولى، القاهرة، عيسى الحلبى، جـ١، صـ٣.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ت عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجى، جـ٢، صـ١٧.

(٣) الرافعى: وحى القلم، بيروت، دار الكتاب العربى، جـ٣، صـ٩.

(٤) الرافعى: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، القاهرة، دار الفكر العربى، صـ٢٧٩.

جادة تكشف عن أسراره وتجلى دقائقه، والمعانى التى نعدها من باب التمنى ذات طبيعة خاصة؛ لأنها من المعانى التى تتعلق بها النفوس وتشتاق اليها القلوب سواء أكانت مستحيلة أو بعيده، فالمتمنِّى يتعلق بها ويشتد تعلقه حتى ينفلت من الواقع والممكن الى الذى مضى وما لا يمكن، ويتعلق بالمستحيل حتى يصير كالظمآن الذى لا يروى أو يستبعد ريه.

و(ليت) فى أكثر مواقعها تصور آمالا حبيسة، ورغائب لا سبيل لتحقيقها، ولو كانت تلك الأمنيات ممكنة فإنها عند المتمنِّى وفى حس نفسه يبعد تحقيقها، لأنها من أشواق الروح وتطلعاتها التى لا تحدها حدود، فالمتمنِّى يبث فى أُمنيته حاجات نفسه ورغباتها ترويحا عن النفس وترجمة عما يجرى فى الخاطر.

ونجد هذا الأسلوب فى البيان النبوى عظيم السلطان شديد التأثير حيث نجده محكيا على ألسنة الخائفين من أهوال آخر الزمان الطالبين للموت فزعا من الشدائد والأحداث، ونجده على ألسنة طالبى الخير متحسرين على ما فات ومضى...

لهذا كان المقصود من هذه الدراسة والدافع لهذا البحث بيان دقائق التمنى فى البيان النبوى، وكشف الحجب عما فى(ليت) من لطائف وأسرار، وما تحدثه فى نسق التراكيب من إيحاءات، وما توحى به من أغراض، ثم الكشف عن الفروق الدقيقة بين التمنى بـ (ليت) والتمنى بغيرها كالأستفهام والأمر والشرط، وبخاصة أننى لم أجد أحدا ــ على حد علمى ــ خص هذا الموضوع بدراسة مستقلة فى البيان النبوى.

وتبرز أهمية هذا الموضوع فى أن التمنى فى البيان النبوى ظاهرة تستحق الدراسة البلاغية سواء أدى بالحرف الموضوع له وهو (ليت) أم أدى بغير (ليت)؛ لأن طلب الممتنع خديث نفسى والهة تملكها الذهول فلم تعد تفرق بين ما هو ممكن وما هو محال، ووراء ذلك ايحاءات ثرية، والبحث ــ إن شاء الله ــ يكشف عن هذه الإيحاءات ويبين أسرارها وارتباطها بنفوس أصحابها، والمقامات التى اقتضدتها بما يمثل ــ إن شاء الله ــ إضافة فى مجال البحث البلاغى.

هذا: وقد جاءت خطة هذه الدراسة (من بلاغة التمنى فى البيان النبوى) على النحو التالى:

المقدمة وفيها: أهمية الموضوع والدافع اليه.

المبحث الأول: (مفهوم التمنى وقيمتة البلاغية) ويتضمن تحرير مصطلح التمنى فى اللغة، وتحرير مصطلح التمنى عند البلاغيين، وصيغ التمنى، والفرق بين التمنى والترجى، والقيمة البلاغية للتمنى.

المبحث الثانى : (التمنى بـ (ليت) بلاغة ومقاماته فى البيان النبوى) ويتضمن:

أولا: المتمنَّى المستحيل، ويشمل المقامات الآتية: التمنى فى مقام غبطة أهل القبور، التمنى فى مقام غبطة أهل القرآن وأصحاب المال، التمنى فى مقام صيام التطوع،

ثانيا: المتمنى الممكن.

المبحث الثالث : (التمنى بغير (ليت) بلاغته وطرقة فى البيان النبوى) ويتضمن: التمنى بطريق الاستفهام، التمنى بطريق الأمر، التمنى بـ(لعل)، التمنى بطريق الشرط.

الخاتمة : وفيها أهم النتائج .

ولا أدعى أننى بلغت فى بحثى هذا درجة الكمال، فالكمال لله وحده ولكنى اجتهدت قدر طاقتى، والله أسأل أن يقيل عثراتى ويغفر ذلاتى وهو الهادى إلى سواء السبيل(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)

إبراهيم حسن أحمد

المبحث الأول
مفهوم التمنى وقيمته

تحرير مصطلح التمنى فى اللغة

الناظر فى معاجم اللغة يجد أن التمنى يدور معناه فى إطار الرغبة والإرادة والطلب. فالتمنى: السؤال للرب فى الحوائج. والمُنى بضم الميم : جمع المُنية، وهو ما يتمنى الرجل. والأمنية :أُفعولة وجمعها الأمانى ، ويقال: مُنية على فُعلة وجمعها: مُنًى. والتمني: تشهى حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون . وتمنيت الشيء:أحببت أن يصير إلى. وتمنَّى الشيء: أراده[١] .

تحرير مصطلح التمنى عند البلاغيين :

التمنى نوع من الإنشاء الطلبي، وقد عرفه سعد الدين التفتازانى بقوله: "التمنى هو طلب حصول شيء على سبيل المحبة "[٢]، وعرفه ابن يعقوب المغربى بقوله: "هو طلب حصول الشيء بشرط المحبة ونفى الطماعية فى ذلك الشيء[٣] ومن ذلك يتضح أن التمني: هو طلب أمر محبوب مع عدم الطماعية فى حصوله، إما: لكونه مستحيلا- والإنسان كثيرا ما يحب المستحيل ويطلبه- وإما: لكونه ممكنا غير أنه بعيد لا يطمع فى نيله[٤].

---

[١] القاموس المحيط للفيروزآبادى جـ ٤، ص ٣٩٢، مادة(منى) ، بدون ناشر، لسان العرب لابن منظور، جـ ٥، صـ ٢٩٤، مادة (منى) ، دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م

[٢] مختصر سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح جـ٢، صـ ٢٣٩(ضمن شروح التلخيص) ، طبعة دار السرور، بيروت.

[٣] مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربى، جـ٢، صـ ٢٣٩.

[٤] ينظر: معجم البلاغة العربية، للدكتور/ بدوى طبانة، جـ ٢، صـ٨٥٧، منشورات جامعة طرابلس١٣٩٧هـ١٩٧٧م، دلالات التراكيب: للدكتور/ محمد أبو موسىصـ١٩٤، مكتبة وهبة، ط. الثانية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، علم المعانى، للدكتور/ عبد العزيز عتيق، صـ١١٢.ط.دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م، علم المعاني: للدكتور/ بسيونى فيود، جـ٢، صـ ١٥٥، ط.أولى.١٤٠٨هـ١٩٨٨م.

والمعانى التى نعدها من باب التمنى تتعلق بها القلوب وتشتاق إليها سواء أكانت مستحيلة أم بعيدة، ونجد هذا الأسلوب فى الكلام البليغ عظيم السلطان شديد السيطرة، فنحن حين نقرأ قول الله ــ تعالى -:(ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا)[١].

نرى كيف جسد التمنى شدة ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وسلك سبيل الشيطان، فها هو ذا يصرخ صرخة النادم المفجوع الذى احتجب عقله ووعيه فلم يعد يفرق بين ما هو ممكن وما هو محال؛ لأنه ــ كما قال السكاكى ــ: "يطلب غير الواقع فى الماضى واقعا فيه مع حكم العقل بامتناعه"[٢]، وقد تجاوبت صيغة التمنى التى تكررت مسبوقة بأداة النداء مع الكناية بعض اليدين فى تجسيد الإحساس بالندم والحسرة فـ "عض اليدين والأنامل والسقوط فى اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها: كنايات عن الغيظ والحسرة، لأنها من روادفها "[٣].

وحين نقرأ قوله -تعالى-: (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين)[٤]. نرى فى التمنى صرخة المفزوع الذى تملكه الذهول، وأفقده هول ما رأى من النار وعيه وعقله فأطلق هذا النداء طالبا ما يعلم أنه لن يكون.إنها صيحة اعتذار واستعطاف خرجت فى صورة التمنى بعد أن أحاط بهم الخزى فلم يجرءوا أن يطلبوا من الله -تعالى- العودة إلى الدنيا طلبا صريحا بل إنهم استخذوا أن يذكروا الله ــ تعالى ــ الذى طالما حاربوا رسله وأنكروا وجوده فحذفوا المنادى بعد أداة النداء، والأصل أن يقال: يا ربنا ليتنا نرد، لكن وجوههم المسودة ورءوسهم المنكسة لم تقو على مواجهة المنعم -سبحانه- ودعائه.

ولست مع من[٥] يقدر المنادى: قومنا، ففى مثل هذا الموقف تنقطع الأسباب، وتتفرق الأقوام، ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، والغرض من التمنى

---

(١) الفرقان: ٢٧ ــ ٢٩.

(٢) مفتاح العلوم، صـ١٤٦.

(٣) الكشاف، جـ٣، صـ٢٧٦.ط، دار الكتاب العربى .

(٤) الأنعام: ٢٧.

(٥) ينظر: روح المعانى، جـ٧، صـ١٢٨.

هنا: الاعتذار والاستعطاف، وإيثار صيغة التمنى ينم بما يسيطر على نفوسهم من اليأس من تحقيق أمنيتهم، وليتهم صادقون فى أمنيتهم هذة، يقول الزمخشرى: "تمنوا ما تمنوا ضجرا لا أنهم عازمون على أنهم لو ردوا لآمنوا"[١].

وحين نتأمل قول الله ــ تعالى ــ : { إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا } نرى فرط الندم وشدة التحسر وطغيان الهلع الذى جعل الكافر يتمنى أن لو لم تكن له نفس تحس وعقل يعى، فينجو من ذلك العذاب الشديد، حتى وصل به الأمر إلى حد يحسد معه التراب الذى كان يدوسه بقدميه، ولعلنا نلمس الحرص على إيثار التراب دون سواه من الجمادات، حيث هو منبت الإنسان وأصل خلقته، وكأنه يقول: ليتنى ظللت على ما كنت عليه ولم أخلق بشرا سويا.

يقول ابن عاشور: "يتمنى الكافر أنه لم يخلق من الأحياء فضلا عن أصحاب العقول المكلفين بالشرائع، أى: يتمنى أن يكون غير مدرك ولا حساس بأن يكون أقل شىء مما لا إدراك له وهو التراب، "[٢]، فالتمنى هنا صرخة النادم المتحسر ولطمة المفجوع اليائس

ثم تأمل كيف تتعالى نبرة الأسى والحزن حتى تصبح صيحات الندم أشبه بأصوات النائحات فى قوله ــ تعالى : { وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية }[٣]، فقد تجاوبت صيغة التمنى التى تكررت مسبوقة بأداة النداء مع المد وزيادة هاء السكت فى (كتابيه) و (حسابيه) فى تجسيد الإحساس بالحسرة والندم.

أو كما يقول سيد قطب: "هى وقفة طويلة وحسرة مديدة ونغمة يائسة، ولهجة بائسة، والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهى إلى نهاية...،والرنة الحزينة الحسيرة المديدة فى طرف الفاصلة الساكنة وياء العلة قبلها بعد المد بالألف فى تحزن وتحسر: هى جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة

---

(١) الكشاف: جـ٢، صـ١٥.

(٢) التحرير والتنوير: جـ٣٠، صـ٤٦٦.

(٣) الحاقة: ٢٥ــ٢٧

والأسى إيحاء عميقاً"[١] إن الكافر يوم القيامة يتمنى أن لو لم يؤت كتابه ولم يدرك حقيقة حسابه ويتمنى أن لو كانت الموتة التى ماتها هى القاطعة لأمره ومنتهى مآله فلم يبعث بعدها "وكيف لا وأمره آل إلى عذاب لا ينقطع"[٢] .

ثم لنقرأ قوله ــ تعالى ــ على لسان مريم -عليها السلام- حين أتاها المخاض وحانت لحظة ميلاد عيسى -عليه السلام- فتراءت أمام عينيها أشباح مخيفة من صور الاتهامات التى ستطاردها بعد حين فيما يمس شرفها وعرضها: : (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا)[٣] .

فهذا التمنى يجسد مشاعر الخوف من المستقبل بعد أن أظلم فى عينيها، وتزاحمت الرؤى المحزونة فى خواطرها، وتبدت لها أنياب البشر تنهش عرضها، وتتطاول على شرفها وعفتها، وقابل -إن شئت- بين الذكر الفاضح وذيوع أمرها وشهرته، وبين أمنيتها أن يكون الموت قد أسدل عليها ستارا من النسيان حتى لا تمر بخاطر أحد، إنها أنفاس الحسرة وتأوهات المحزون خرجت فى صيغة التمنى[٤].

وعندما نتذوق الشعر العربى نجد أن الشعراء كثيرا ما يعتمدون على أسلوب التمنى فى تصوير مشاعرهم وتجسيد تأوهاتهم، يبدو هذا جليا فى قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

فالأمر المتمنى فى البيت لا طمع فى حصوله، لأنه مستحيل الوقوع ،لتعلقه بما مضى ، ثم إننا لا نرى الشاعر قصد إلى إبراز رغبته فى عودة الشباب وأيامه الحلوة المرحة فحسب ، بل ضمن ذلك مشاعر الأسى والتحسر والشكوى من الشيب وما صحبه من ضعف فى البدن ، وعجز عن الاستمتاع بالحياة، وإحساس مخيف يلاحقه دائما بالنهاية المحتومة، وعزوف الناس والخلان عنه، فالتمنى فى البيت وسيلة عبر بها الشاعر عن آلامه وضيق نفسه، وليس مجرد رغبة حبيسة تفلت بها لسانه، ومن هنا صرح بالشكوى فى قوله: (فأخبره بما فعل المشيب).

---

[١] فى ظلال القرآن: جـ٦، صـ٣٦٨٢.

[٢] أبو حيان: البحر المحيط، جـ١، صـ ٢٦٢، دار لبفكر بيروت.

[٣] مريم: ٢٣.

[٤] ينظر: الفراء، معانى القرآن، حـ٢،صـ١٦٤، القرطبى: الجامع لأحكام القرآن، جـ٦، صـ٩٣، نظم الدرر، جـ١٢، صـ١٨٧، محاسن التأويل، جـ١١، صـ٤١٣٤.

فإذا جاء التمنى بـ(ليت) فيما ليس بعيد الوقوع كان ذلك إبرازا للممكن فى صورة المستبعد؛ إظهارا للشكوى وتجسيدا لما يعانيه المتمنِّى من مرارة الألم والإهمال، كما فى قول المتنبي:

فيا ليت ما بينى وبين أحبتي من البعد ما بينى وبين المصائب

فقد تكاثرت عليه المصائب ولازمته ملازمة دائمة، فى حين جفاه أحبته وابتعدوا عنه، فتمنى أن لو كان أحبته قريبين منه قرب المصائب . وليس قرب الأحبة بالشيء المحال ، ولكن طول الجفاء ولّد لديه شعورا باليأس والمرارة بثه فى صيغة التمني، وحسبك أنه لا يشكو من حلول المصائب به ولا يعاف قربها، وإنما يتمنى أن يكون أحبته على نفس الدرجة من القرب، وحينئذ فلن يبالى بما يلقاه من النوائب، فالتمنى هنا لما هو ممكن ولكنه فى عداد البعيد غير المطموع فى حصوله.[1]

صيغ التمني:

اللفظ الذى يدل بأصل وضعه اللغوى على التمنى هو(ليت) وهو حرف يتعلق بالمستحيل غالبًا[2]،كما فى قول الشاعر:

ليت النجوم تدنو لى فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

وقول ابن الرومي فى شهر رمضان:

فليت الليل فيه كان شهرا ومر نهاره مر السحاب

فالأمر المتمنى فى البيتين جاء بصيغة التمنى الأصلية وهى (ليت)، وقد أفادت عدم الطمع فى نيل المتمنِّى فى البيتين، لكونه مستحيل الوقوع.

وقد يتمنى بثلاث صيغ أخر هي: (هل) و(لعل) و(لو)، لغرض بلاغى يقصده المتمنى وينشده "وهذا الغرض فى (هل) و(لعل) هو إبراز المتمنى فى صورة الممكن القريب الحصول، لكمال العناية به والتشوق إليه، والغرض فى (لو): الإشعار بعزة

---

(١) ينظر علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوي وآخرين صـ٩١، ٩٠.

(٢) ينظر مغنى اللبيب، لابن هشام، ت. د/مازن المبارك، د/ محمد على حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م، صـ٣٧٥.

المتمنى وندرته، لأن المتكلم يبرزه فى صورة الممنوع، إذ إن (لو) تدل بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط"[١].

وأعظم مواقع التمنى ما أفيد بأدوات ليست موضوعة للدلالة عليه أصالة فيصاحبها من ظلال معانيها الوضعية ما يكشف عن أغراض المتكلم وإيماءاته، وفى ضوء هذه العبارة سنعرض بقليل من التفصيل للتمنى المفاد بـ(هل) و(لعل) و(ليت)، لنتلمس خصوصيات التمنى بهذه الصيغ التى لم توضع أصالة للتمنى.

أولا: التمنى بـ(هل):

التمنى طلب قلبى أو هو كما يقول اللغويون: حديث النفس، والإنسان حين يحدث نفسه لا يضع خطا فاصلا بين الممكن والمحال، وكثيرا ما يتغلب المرء على عجزه ويأسه بإطلاق العنان لخياله فيرى مالا سبيل إلى كونه كائنا، وهو بذلك يسرى عن نفسه ويخفف عنها من شقائها، وبقدر استغراقه فى أحلامه وأوهامه يستعمل أدوات التمنى.

و(هل) موضوعة للاستفهام، وهو يقتضى عدم العلم بالمستفهم عنه ثبوتا أو نفيا، فإذا استعملت فى التمنى المقطوع بانتفائه كان ذلك دليلا على تضمنها لمعنى التمنى وإفادتها له، مثال ذلك ما جاء على لسان الكافرين يوم القيامة: (هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون)[٢]

فالاستفهام الثانى فى الآية: (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) يفيد التمنى، تمنى الشفعاء، أو الرد إلى الدنيا؛ ليعملوا غير ما عملوا، يقول الزركشى: "حملت (هل) على إفادة التمنى، لعدم التصديق بوجود شفيع فى ذلك المقام، فيتولد التمنى بمعونة قرينة الحال"[٣].

---

(١) معجم البلاغة العربية للدكتور/ بدوى طبانة، جـ٢، صـ٨٥٨، وينظر: علم المعانى للدكتور/ عبد العزيز عتيق، صـ١١٣، ودلالات التراكيب للدكتور/ محمد أبو موسى صـ ٢٠١، ٢٠٢، علم المعانى للدكتور/ بسيونى فيود، جـ٢، ص١٥٨، ١٥٩.

(٢) الأعراف: ٥٣.

(٣) البرهان فى علوم القرآن: جـ٢، صـ٣٢١، وينظر: فتح القدير: جـ٢، ص٢١٠، والطبرسى، مجمع البيان، جـ٤، صـ٦٥٨، الجامع لأحكام القرآن: جـ٤، صـ٢١٨.

وجملة: (أو نرد فنعمل...) "معطوفة على الجملة التى قبلها داخلة معها فى حكم الاستفهام، كأنه قيل: هل لنا من شفعاء؟ أو هل نردُّ ؟"[١]

إنهم يتمنون الشفعاء؛ ليفلتوا من العقاب والعذاب، أو يردون إلى الدنيا ، ليصلحوا ما أفسدوا، وليتداركوا ما فاتهم، وقد قدموا بين يدى أمنيتهم اعترافهم بالرسل، وبربوبية من أرسلهم، وهم بهذا الاعتراف طامعون فى الاستجابة، والحقيقة: أن أُمنيتهم بعيدة المنال بل مستحيلة الحصول، "والنكتة فى التمنى بـ(هل) والعدول عن (ليت) هو إبراز المتمنى؛ لكمال العناية به فى صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائه"[٢]

وقريب من ذلك ما جاء على ألسنة الكافرين يوم القيامة بعد أن ألقوا فى النار فيما يشبه صرخة الاستغاثة: (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل)[٣]

فالكافرون يلتمسون وهم يعذبون فى نار جهنم طريقا إلى الخروج، ويصرخون ضارعين إلى الله -تعالى- أن يستجيب لندمهم، ويعفو عنهم بعد أن أقروا بذنبهم، وغاية أمانيهم أن يجدوا سبيلا ينتهى بهم إلى الخروج من النار، ولعل رغبتهم الجامحة فى إيجاد مخرج من العذاب هى التى جعلتهم يقدمون الجار والمجرور (إلى خروج)على (من سبيل)؛ إسراعا إلى المقصود وانتهاء إلى الغرض.[٤]

إن الكافرين يتمنون الخروج من النار بعد أن كتب الله عليهم الخلود فيها، وهم يعلمون أن خروجهم من العذاب لا سبيل إليه، ولكنهم أبرزوا المحال فى صورة الممكن، وكأنهم يمنون أنفسهم بإمكانه، فآثروا حرف الاستفهام (هل) لإظهار المتمنَّى المستحيل فى صورة الأمر المرجو الحصول المطموع فى نيله ، وقد قدموا له بهذا الاعتذار، وهو الاعتراف بربوبية الله -تعالى- والإقرار بذنوبهم، وإظهار غاية الضعف والذلة؛ طمعا فى عفو الله ومغفرته، بعد أن قطعوا كل الأسباب إليها.

فإذا ما ذهبنا إلى الشعر وجدنا الشعراء كثيرا ما يخرجون متمناهم من دائرة البعد إلى نطاق الإمكان ويطلقون العنان لخيالهم فيبرزون ما لا سبيل لحصوله حاصلا؛

---

(١) الكشاف: جـ٢، صـ١٠٩.

(٢) التفتازانى، المطول،صـ٢٢٥، والمختصر، جـ٢، صـ٢٤٠.

(٣) غافر: ١١.

(٤) ينظر: د/ الخضرى: من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم، صـ١٠١.

طمعا فى حصوله، وبقدر استغراقهم فى أحلامهم يستعملون صيغ التمنى وأدواته، فهذا ابن الرومى يقول:

أأيام لهـوى هـل مواضـيك عـود وهل لشباب ضـل بـالأمس منـشد

فيبين لهفته الشديدة إلى ماضى أيامه وذكرياتها المحببة إلى نفسه حتى توهم من فرط لهفته واستغراقه أن عودتها من الممكن الذى لا يستبعد حصوله ونيله فاستعمل فى التمنى (هل) الموحية بالإمكان، وحاول أن يوهم نفسه أن عودة شبابه وأيامه أمر منتظر، فهو كالغائب المرتقب عودته، أو التائه المرجو العثور عليه، وانظر إلى قوله: (ضل) وكيف آثره على الفعل (ولّى) مثلا ؟ ثم انظر إلى قوله: (بالأمس) وكيف استحضر به البعيد فبدا قريبا لم يطل زمن فراقه ؟ .(١)

والحكم بالإمكان والإحالة فى التمنى أمر نسبى تحكمه ظروف المرء وعصره وبيئته، فما يبدو ممكنا فى زمن قد يكون محالا فى زمن آخر، وما يكون بعيدا من شخص قد يكون قريبا من شخص آخر، وتأمل ما حكاه صاحب لسان العرب: " كتب عبد الملك إلى الحجاج: يا بن المتمنية، أراد: أمه، وهى القريعة بنت همام، وهى القائلة:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

وكان نصر رجلا جميلا من بنى سليم يفتتن به النساء فحلق عمر رأسه ونفاه إلى البصرة" (٢) .

ومغزى القصة أن القريعة سميت متمنية بسبب هذا البيت، والتمنى فيه واقع بـ(هل)، والذى جعل شرب الخمر والوصول إلى هذا الفتى الجميل أمنية بعيدة المنال هو العصر الذى عاشت فيه القريعة، وضرب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – بيد من حديد على كل يد آثمة، أفتكون هذه الأمنية بمثل هذا البعد وتلك الإحالة فى عصر ملوك بنى أمية؟ وحالة العشق والهيام والرغبة الجامحة لدى المتمنية هى التى جعلتها تبرز متمناها فى صورة الممكن، حتى لا تركن إلى اليأس فى طلب ما تسعى إليه.

---

(١) ينظر: علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوى وآخرين، صـ٩٣، بدون ناشر.

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة (منى) .

يقول ابن يعقوب المغربى: "والسر فى العدول عن (ليت) التى هى الأصل فى التمنى إلى (هل) فى نحو هذا الكلام: إبراز المتمنَّى فى صورة المستفهم عنه الذى لا جزم بانتفئه، لإظهار كمال العناية به حتى لا يستطاع الاتيان به إلا فى صورة الممكن الذى يطمع فى وقوعه"[١]

والمتكلم مهما حاول أن يوهم نفسه بإمكان ما ليس ممكنا فإن لسانه يتفلت بما يدل على يقينه الذى يداريه ويأسه من حصول مبتغاه، والدليل على ذلك ما نراه فى قول المتمنية: (هل من سبيل إلى خمر فأشربها) فإن (من) لا تزاد إلا فى الاستفهام المتضمن للنفي، وكأنها تجزم بانتفاء شرب الخمر، وبقدر إحساس المرء تقع كلماته، وكأن القريعة تستبعد السبيل إلى شرب الخمر بعد أن قطع عمر-رضى الله عنه- كل سبيل إليها، وترى الوصول إلى نصر بن حجاج أقل بعدا، فزادت (مِن) أولا، وتركتها ثانيا[٢].

ثانيا: التمنى بـ (لعل) :

الأصل فى (لعل) أن يرجى بها ما هو قريب الحصول، وقد تأتى مفيدة لمعنى التمنى كما فى قوله -تعالى-: (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصُدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب)[٣].

فبلوغ أسباب السموات للاطلاع على إله موسى -سبحانه وتعالى- من الأمور المستحيلة التى لا يمكن حصولها، ولا يستطيع إنسان بلوغها، وتلك الإحالة تقتضى استعمال أداة التمنى (ليت)، ولكن فرعون -لعنه الله- آثر حرف التوقع (لعل) بدلا من حرف التمنى؛ ليبرز المتمنَّى المحال فى صورة الممكن القريب الحصول الجائز الوقوع ؛ وذلك لكمال العناية به وشدة الرغبة فى وقوعه ونيله.

ويبدو فى هذا إدلال فرعون بقوته وقدرته على بلوغ أسباب السموات، ولم لا؟ وهو الذى يدعى الألوهية ويوهم قومه أنه ربهم الأعلى، يقول الزمخشرى: "قرىء (فأطّلعَ) بالنصب على جواب الترجى تشبيها للترجى بالتمنى"[٤]، وفى الجنى الدانى:

---

[١] شرح ابن يعقوب المغربى على تلخيص المفتاح، جـ٢، صـ٢٤٠.

[٢] ينظر علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوى وآخرين ص٩٤، ٩٥.

[٣] غافر: ٣٦، ٣٧.

[٤] الكشاف جـ٤، صـ١٦٧.

"وقد أشربها معنى (ليت) من قرأ: (فأطلعَ) نصباً"[١] ويقول الألوسى: "إن هذا الترجى تمن فى الحقيقة، لكن أخرجه اللعين هذا المخرج تمويها على سامعيه"[٢]

ويقول الدكتور محمد أبو موسى: "وقد يتمنى بـ(لعل) كما فى قوله -تعالى-: (لعلى أبلغ الأسباب، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا)، قرأ عاصم فى رواية حفص بالنصب (فأطّلعَ)، وهو لا يكون إلا إذا كانت (لعل) بمعنى: (ليت)، فهذه القراءة تجعل الرجاء تمنياً، وحينئذ تفيد أن إحساس فرعون باطّلاعه على إله موسى أمر مستبعد، وهكذا يعتقد، لأنه لا يؤمن بأن لموسى إلها، ولأنه قال: (وإنى لأظنه كاذبا).

وجاء التمنى فى عبارة الرجاء التى تكون للأمر المتوقع، لأن فى ذلك إيهاما بأنه جاد فى التعرف على حقيقة ما يدعو إليه موسى، فهاهو ذا يبلغ أسباب السموات ويجد فى أن يطلع على حقيقة الأمر، وكأن وراء ذلك إدلالاً بقوة موقفه، وأنه إنما يفعل ذلك ليبطل ما قد يطوف فى الأوهام، أن فى الكون إلها غيره، وهذا واضح جدا فى قراءة الرفع، لأن الأسلوب فيها أسلوب رجاء، ولا معنى للتوقع إلا على هذا الوجه"[٣].

ولنتأمل قول الشاعر:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلى إلى من قد هويت أطير

فطيران الشاعر إلى من يهوى على جناح طائر مستعار أمر محال، وهذا يقتضى الإتيان بـ(ليت)، لكن الشاعر أرانا إياه ممكنا فى عدوله عن حرف التمنى إلى حرف التوقع (لعل)، فالشاعر أبرز المحال فى صورة الممكن، إشارة لكمال عنايته بهذا الأمر، وإظهارا لشوقه الجارف الذى تتبدد أمامه حجب المستحيل ويتخطى به عوائق العجز البشرى، فآثر لذلك حرف الترجى ليتعانق مع التمنى بـ(هل)فى الشطر الأول من البيت: (هل من يعير جناحه) فإذا كانت إعارة الجناح أمرا ممكنا، فلم لا يكون طيرانه بهذا الجناح ممكنا كذلك؟[٤].

---

[١] ينظر: الجنى الدانى فى حروف المعانى: صـ٥٨١.

[٢] روح المعانى جـ٢٤، صـ٦٩.

[٣] دلالات التراكيب: صـ٢٠٢.

[٤] ينظر: علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوى وآخرين، صـ٩٦.

ويقول الدكتور/هاشم محمد هاشم: "(لعل) هنا لا يصح أن تكون للترجى؛ لأن طيرانه بجسمه إلى من يهوى مع أنه لا جناح له أمر بعيد الحصول، بل مستحيل، ولذا كان معناها: التمنى، ونكتة العدول عن التمنى بـ(ليت) إلى التمنى بـ(لعل): الإشعار بأن المتمنَّى قريب الحصول، وإظهاره فى صورة الممكن المتوقع حصوله، لشدة الرغبة فيه"[١].

وقد أشار الدسوقى إلى أن دلالة (لعل) على التمنى من مستتبعات التراكيب[٢]، وقد علق السعد على عبارة الخطيب "وقد يتمنى بـ(لعل) فتعطى حكم (ليت) نحو:لعلى أحج فأزورك بالنصب، لبعد المرجو عن الحصول"[٣]. فقال: "وبهذا يشبه المحالات والممكنات التى لا طماعية فى وقوعها فيتولد منه معنى التمنى"[٤].

ونلاحظ هنا أن الخطيب وشراحه جروا على تشبيه المرجو بالمحال، لبعد الحصول، بخلاف (هل) و(لو) المستعملتين فى التمنى، حيث يشبَّه معنى(ليت) بمعنى(هل) و(لو)، لتحقيق الغرض من إبراز المتمنى فى صورة الممكن، أو الممتنع، وكان يجب أن يقال هنا: شبه المحال بالممكن لإبراز الميئوس منه فى صورة المطموع فيه؛ إظهارا لكمال الرغبة وتفاؤلا بوقوع المرغوب فيه-كما فى قول الشاعر المذكور- وهو ما صرح به العصام فى الأطول فقال:" والأقرب أن يتمنى بـ(لعل)، لقرب المتمنَّى من الحصول فكأنه قريب من الرجاء"[٥].

ثالثا: التمنى بـ(لو):

إذا كان التمنى قد يفاد بـ(هل) و(لعل)، إبرازا للمحال فى صورة الممكن، فإننا نجد أن التمنى قد يفاد بـ(لو) فى عكس ذلك، فتجىء (لو) دالة على التمنى، لإبراز المتمنَّى فى صورة الممتنع؛ تجسيدا لليأس من حصوله،مثال ذلك قوله ـ تعالى ـ

---

[١] من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل فى القرآن الكريم، صـ١٢٥، ط أولى، ١٩٩٤، بدون ناشر.

[٢] ينظر: حاشية الدسوقى، جـ٢، صـ٢٤٥.

[٣] تلخيص المفتاح، للخطيب، جـ٢، صـ٢٤٥.

[٤] مختصر السعد على التلخيص، جـ٢، صـ٢٤٥، وينظر: المطول، صـ٢٢٦ ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى، جـ٢، صـ٢٤٦.

[٥] الأطول للعصام، صـ٢٣٤.

على لسان الكافرين بعد إلقائهم فى النار: (قالوا وهم فيها يختصمون، تالله إن كنا لفى ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين، وما أضلنا إلا المجرمون، فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين)[١]

فقد ضُمّنت (لو) معنى التمنى بقرينة نصب المضارع بأن مضمرة بعدها، إذ لا ينصب الفعل بأن مضمرة بعد الفاء إلا بعد الاستفهام، أوالتمنى، أوالعرض، أوالأمر، أوالنهى، أوالنفى[٢]، فكان نصب الفعل قرينة على أن (لو) محمولة على التمنى؛ لكثرة إفادتها له.

والسر -والله أعلم- وراء التمنى بـ(لو) هنا الإشعار بعزة متمناهم فأبرزوه فى صورة الممتنع، لأن الأصل فى (لو) الدلالة على الامتناع[٣]، وفى ذلك تجسيد لمشاعر اليأس التى أحاطت بهم.

يقول الزمخشرى: "و(لو) فى مثل هذا الموضع فى معنى التمنى كأنه قيل: فليت لنا كرة، وذلك لما بين معنى (لو) و(ليت) من التلاقى فى التقدير"[٤]، ويقول أبو حيان: "(لو) هنا أُشربت معنى التمنى"[٥]، ويقول الشهاب: "(لو) تدل على الامتناع، والتمنى يكون لما يمتنع فأُريد بها ذلك"[٦]، ويقول ابن عاشور: "(لو) هذه للتمنى، وأصلها (لو) الشرطية، لكنها تنوسى منها معنى الشرط، وأُصلها: لو أُرجعنا إلى الدنيا لآمنا، لكنه إذ لم يقصد تعليق الامتناع على الامتناع تمحضت (لو) للتمنى؛ لما بين الشىء الممتنع وبين كونه متمنى من المناسبة"[٧].

فمن كلام العلماء يتضح أن (لو) هنا تفيد التمنى، وأنها وردت على ألسنة الكافرين، تمنيا للرجوع إلى الدنيا بدلا من (ليت)، وذلك لأنها تزيد المتمنَّى بعدا، وصدق القرطبى حين قال: "تمنوا حين لا ينفعهم التمنى"[٨].

---

[١] الشعراء: ٩٦-١٠٢.

[٢] ينظر: المبرد، المقتضب: جـ٢، صـ١٦، ت/ محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ابن هشام، شرح شذور الذهب: صـ٣٠١، ٣٠٢، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

[٣] ينظر: مغنى اللبيب، جـ١، صـ٣٣٧.

[٤] الكشاف: جـ٣، صـ٣٦٩.

[٥] البحر المحيط: جـ٨، صـ١٧١.

[٦] حاشية الشهاب: جـ٧، صت٢١.

[٧] التحرير والتنوير: جـ١٩، صـ١٥٦.

[٨] الجامع لأحكام القرآن: جـ٧، صـ١١٨.

ولنتأمل فى هذا المعنى قول جرير:

ولّى الشباب حميـدة أيامـه لو كان ذلـك يـشترى أو يرجـع

فلعلنا نشعر بشدة استحالة المتمنى فى البيت، وهو رجوع الشباب، وازدياد بعده عن قولنا: ليت الشباب يعود، ومرد ذلك إلى أن (لو) حرف امتناع[١].

وقد جاءت (لو) فى قول جرير لتعكس إحساسه بواقعه الأليم، وتحد من جنوح خياله فنراه يصبغ أمنيته بمشاعر اليأس من تحقيقها، وقد مهد لذلك بالفعل (ولّى)، إيماء إلى أن ما مضى ليس بعائد، وإنما هى عبرات يسكبها حزنا عليه، وزفرات يخفف بها من حدة آلامه، وقارن ذلك- إن شئت- بقول ابن الرومى السابق:

أأيام لهـوى هـل مواضـيك عـود وهل لشباب ضـل بـالأمس منـشد

فإنك تشعر بأن جريرا أبعد فى المشيب وطال زمن اغترابه عن الشباب، فأيقن بعدم عودته ويئس من رجوعه فكان تعبيره بـ(لو) و(ولى) متساوقا مع هذا الشعور ، أما ابن الرومى فلا يزال حديث عهد بالشباب، وكأنه فى بداية المشيب، ولا تزال أحلام الشباب تراوده، فأخرج أمنيته فى صورة الاستفهام، وعبر عن تولى الشباب بالفعل(ضل) وهو مأمول العثور عليه، وتصريحه (بالأمس) دليل على قرب افتراق الشباب[٢].

الفرق بين التمنى والترجى:

اتضح لنا فيما سبق أن التمنى: هو طلب حصول الشىء على سبيل المحبة مع عدم الطماعية فى حصوله، وقد تضمن هذا التعريف قيدين، الأول: اشتراط المحبة، والثانى: عدم الطماعية فى وقوعه. والأصل فى الترجى أن يكون فى الممكن المتوقع الحصول، فالترجى فيه طمع وهو متوقع الحصول بخلاف التمنى

وقد فرق التنوخى بين الترجى والتمنى فذكر أن التمنى يكون معشوقا للنفس والمرجو قد لا يكون كذلك، ويكون المرجو متوقعا والمتمنى قد لايكون كذلك[٣]، وجاء

---

(١) ينظر الإيضاح للخطيب القزوينى، بشرح عبد المتعال الصعيدى، جـ٢، صـ٣٣.

(٢) ينظر: علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوى وآخرين، صـ٩٩.

(٣) ينظر الأقصى القريب للتنوخى، صـ٨، ٧.

فى الإتقان:" نقل القرافى فى الفروق:الإجماع على أن الترجى إنشاء، وفرق بينه وبين التمنى، بأنه فى الممكن، والتمنى فيه وفى المستحيل، وبأن الترجى فى القريب والتمنى فى البعيد، وبأن الترجى فى المتوقع والتمنى فى غيره، وبأن التمنى فى المعشوق للنفس والترجى فى غيره"(١).

والفرق بين الترجى والتمنى فى المطلوب الممكن مرجعه إلى نفس المتكلم وشعوره، فمثلا إذا كان المتكلم يطلب حصول مال ويتوقعه ويطمع فى وجوده ونيله قال مترجيا: لعل لى مالا فأحج به، وإن كان غير متوقع له ولا طمع له فى نيله قال متمنيا: ليت لى مالا فأحج به. يقول الدكتور/ أبو موسى:" التمنى هو طلب حصول الشىء على سبيل المحبة، والشىء المطلوب يكون فى التمنى دائما غير متوقع، ويدخل فيه ما لا سبيل إلى تحقيقه، فإذا كان المطلوب الممكن متوقعا كان الكلام ترجيا والعبارة عن ذلك تكون بـ(لعل، وعسى)، فإذا قلت: لعل زيدا يجىء كان وراء ذلك إحساس بأن مجىء زيد من الأمور المتوقعة. الفرق بين التمنى والترجى فى المطلوب الممكن هو فى حقيقته فرق بين نوعين من أنواع الإحساس، أما غير الممكن فلا يأتى فيه الترجى"(٢).

القيمة البلاغية للتمنى:

التمنى طلب قلبى، أو هو كما يقول أهل اللغة: حديث النفس وترجمة عما يجرى فى الخاطر، فالتمنى يبث فيه المتمنِّى حاجات النفس ورغباتها، ويسكب فيه عبراته وأحزانه، وقد أحسن ابن يعقوب المغربى الكشف عن الحالة النفسية للمتمنِّى، والأغراض التى يرمى إليها من وراء طلبه لما يدرك أنه لايكون فقال: "إن أصل التمنى إظهار الرغبة فى الفائت مضيا أو استقبالا، إما لمجرد الاعتذار والاستعطاف للمخاطب ليرحم المتمنِّى، وإما لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس"(٣).

إنها لمحة ذكية تجاوز بها ابن يعقوب حقيقة التمنى إلى ما يهدف إليه المتمنى من الشكوى والاستعطاف والاعتذار وما يجده من راحة النفس، فما التمنى سوى زفرات يطلقها مهموم يائس، ونفثات مصدور يروح بها عن نفسه.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، ت، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط، القاهرة، دار الحديث، جـ٣، صـ٢٤٥.

(٢) دلالات التراكيب، صـ١٩٤.

(٣) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى، جـ٢، صـ٢٤٠.

والتمنى أسلوب يستحق الدراسة البلاغية سواء أدى بالحرف الموضوع له أم بغيره، لأن طلب الممتنع حديث نفس والهة تملكها الذهول واستبد بها اليأس فاحتجب العقل والوعى فلم تعد تفرق بين ما هو ممكن وما هو محال ووراء ذلك إيحاءات ثرية تنم عن نفس محطمة وآمال ضائعة.

يقول الدكتور/محمد أبو موسى:"إن المعانى التى نعدها من باب التمنى ذات طبيعة خاصة فهى من المعانى التى تتعلق بها القلوب وتشتاقها سواء أكانت بعيدة أم مستحيلة، ثم إن البعد فيها ربما لا يكون بعدا بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل، وإنما هو بعد من حيث إحساس النفس به، تقول: ليتنى أفعل كذا أو أقدر علية، أو ليتنى ألقى فلانا فتفيد بذلك أنك تحس ببعد هذا الفعل أو هذه القدرة أو هذا اللقاء، وقد يكون ذلك كله غير بعيد فى واقع الأمر أو عند غيرك، ولكن شدة رغبتك فيه أوهمتك أنه مستبعد، وهذه حالة من حالات النفس، وهى ليست متعارضة مع ما نشير إليه من أن شدة الرغبة وعظيم التعلق يوهم أن غير الواقع واقع وأنه دنا فى الأوهام حتى لتكاد تلمسه الأيدى، لأن هذه الحالة الثانية أشبه بالحلم الذى يدنى البعيد، والحالة الأولى حالة إحساس بالبعد ، ويتضح ذلك بتحليل السياق ، فقد يغلب على النفس الإحساس باليأس فتستبعد القريب، وقد يغلب الشعور بالأمل فيقرب البعيد.

وطبيعة المعنى فى باب التمنى مما يجعله من الأساليب ذات الوقع والتأثير، لأنك فى مواقعه تجد نفسا ظمئة إلى شىء ثم إن ظمأها ظمأ لا يروى أو يستبعد ريه..،إن إيغال الرغائب فى البعد مما يزيد النفس بها تحرقا واستعارا....،ورغائب النفوس ومشتهياتها ليست مقيدة بحدود الإمكان، وفرق بين الآمال التى يراد تحقيقها واتخاذ الوسائل إليها وهى بالطبع خاضعة للتفكير والإمكان وبين أشواق الروح وتطلعاتها التى لا تحدها حدود.

وقد أدرك ابن يعقوب المغربى القيمة النفسية لهذا الأسلوب حين ذكر أن تمنى مالا سبيل إليه قد يكون للاستعطاف أو للاعتذار وما شابه ذلك، وقد يكون-وهذا هو المهم- (لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس) أى: إن التعبير عن هذه المتمنيات حين لا يكون القصد منه إحداث التأثير فى موقف معين يكون الغرض منه هو نفس التعبير والترجمة عن هذه الخواطر الحبيسة، والغناء بهذه الأحلام البعيدة فإن ذلك مما يروح عن النفس ويطرح عنها أثقالا وأوزارا"[1].

---

[1] دلالات التراكيب، صـ١٩٥،١٩٩.

هذا وسيتضح فى الدراسة-إن شاء الله- القيمة البلاغية للتمنى بصورة أشمل وأوسع عند الحديث عن كل صورة من صور التمنى، لنجلى قيمتها وأسرارها البلاغية فى ثوب التحليل والتطبيق على البيان النبوى الشريف موضوع الدراسة.

المبحث الثانى

التمنى بـ (ليت) بلاغته ومقاماته فى البيان النبوى البلاغية

ليت: حرف يفيد التمنى عند النحويين والبلاغيين "تصير به نسبة الكلام إنشاء بحيث لا يحتمل الصدق والكذب، ويفيد أن المتكلم طالب لتلك النسبة، فلا يقال للمتكلم بقولنا: ليت لى مالا أحج به، إنه صادق أو كاذب فى نسبة الثبوت للمال، لأنه متمن لتلك النسبة، لا حاك لتحقيقها فى الخارج، وإن كانت عبارة ما وضعت له مستلزمة لخبر، وهو أن هذا المتكلم يتمنى تلك النسبة، ولهذا يقال:الإنشاء يستلزم الإخبار"[١].

و(ليت) : هى الأداة الموضوعة أصالة لمعنى التمنى، والتمنى بها يكون فى الممكن الذى لا يتوقع حصوله، ويكون فى غير الممكن وهو المستحيل، يقول السكاكى: "تقول: ليت زيدا جاءنى، فتطلب غير الواقع فى الماضى واقعا فيه مع حكم العقل بامتناعه، وليت الشباب يعود، مع جزمك أنه لا يعود، وليت زيدا يأتينى فيحدثنى فى حالة لا تتوقعها، ولا طمع لك فيها...، والقدر المشترك بين الثلاثة: التوقع"[٢].

يريد السكاكى أن يقول: إن المتمنَّى قد يكون مستحيلا، وقد يكون ممكنا ولكنه بعيد الحصول. وسأبدأ أولا بذكر المتمنَّى المستحيل فى البيان النبوى، ثم أتبعه بذكر المتمنَّى الممكن البعيد الحصول.

أولا: المتمنَّى المستحيل :

يرد تمنى المحال فى البيان النبوى فى مقامات عده، فأحيانا نراه محكيا على ألسنة بعض الرجال فى آخر الزمان تمنيا للموت وأحيانا نراه محكيا على ألسنة بعض الناس تمنيا لما فاتهم من نعمة القرآن والمال، وتارة نجده على لسان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تمنيا لما فات مما يؤدى إلى كثرة الصوم والطاعة والعبادة، وفى كل هذه

---

[١] ابن يعقوب المغربى: مواهب الفتاح جـ ٢، صـ ٢٣٨، وينظر: حاشية الدسوقى على المختصر جـ ٢، صـ ٢٣٨

[٢] السكاكى: مفتاح العلوم، صـ١٤٦، وينظر: بهاء الدين السبكى: عروس الأفراح جـ٢، صـ٢٣٨.

الأحوال تتنوع أغراض التمنى ومقامات وروده، وسيتناول البحث المتمنَّى المستحيل تحت مقاماته التى ورد فيها، فنسأل الله العون والسداد.

التمنى فى مقام غبطة أهل القبور:

ورد تمنى الموت فى البيان النبوى تبرما من الفتن والأهوال التى ستقع فى آخر الزمان حيث يُغبَط أهل القبور لشدة ستحصل قبل قيام الساعه نرى ذلك واضحا فى الحديث الآتى.

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم قال : "لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتنى مكانه"[١]

فالحديث النبوى الشريف يصورشدة أهوال آخر الزمان بما يحدث للرجال من عزوف عن الدنيا وكراهية للحياة وحب للموت حيث يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن لو كان مكانه، وهذا التمنى يوحى بمدى شدة تلك الأهوال وفظاعتها إذ إنها جعلت الرجل وهو أكثر تحملا للشدائد وصبرا على البلاء وجلدا على النوازل جعلته ييأس من الحياة ويتبرم من المعيشة ويتمنى الموت.

والتمنى فى الحديث الشريف من قبيل تمنى المحال؛ لأن الرجل يتمنى ما لا سبيل لتحقيقه؛ لأنه كما قال السكاكى:"يطلب غير الواقع فى الماضى واقعا فيه مع حكم العقل بإمتناعه"[٢] إنه يتمنى أن لو كان مكان المقبور حتى ينجو من شدائد الفتن وأهوال البلاء.

ولنتأمل تلك اللهفة المكروبة وراء قول الرجل:(يا ليتنى مكانه) وكيف تتعلق نفسه بما فات؟ وكيف هيأ لهذه الصرخة الملتهبة بهذا الصوت المنبه واللافت بقوله(يا)، إنها صرخة المفزوع الذى تملكه الذهول وأفقده هول ما يرى من الشدائد والفتن وعيه وعقله فأطلق هذا النداء طالبا ما يعلم أنه لن يكون.

وأل فى (الرجل) للجنس فتتناول كل رجل من الرجال، وفى هذا إشارة الى كثرة الفتن وانتشارها وعموم البلاء وشدته بحيث لا ينجو منه رجل من الرجال، والجنسيه هنا يتولد منها معنى لطيف؛ لأنها تشير إلى أن من يتمنى فى ذلك الزمان هم الرجال

---

[١] صحيح البخارى، ك، الفتن، ب، لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور جـ ٦، صـ ٢٦٠٤.

[٢] مفتاح العلوم، صـ ١٤٦.

الكاملون فى الرجولة فهم جنس الرجال ومعدن الرجولة، ومن عداهم ليسوا منها فى شيء"وذكر الرجل فى الحديث للغالب وإلا فالمرأة يتصور فيها ذلك"[١].

والظاهر من قوله:(حتى يمر الرجل بقبر الرجل) "أن التمنى المذكور إنما يحصل عند رؤية القبر، وليس ذلك مرادا بل فيه إشارة إلى قوة هذا التمنى؛ لأن الذى يتمنى الموت بسبب الشدة التى تحصل عنده قد يذهب ذلك التمنى أو يخف عند مشاهدة القبر والمقبور فيتذكر هول المقام فيضعف تمنيه، فإذا تمادى على ذلك دل على تأكد أمر تلك الشدة عنده حيث لم يصرفه ما شاهده من وحشة القبر وتذكر ما فيه من الأهوال عن استمراره على تمنى الموت"[٢].

ولنتأمل المضارعة فى الفعلين (يمر) و (يقول) وهما وإن كانا للاستقبال إلا أنهما يصوران تجدد المرور بقبور الموتى، وكأن الفتن وكثرتها قد أودت بحيات الكثير من الرجال، وقد امتلأت البقاع بقبورهم فما من طريق للأحياء إلا ويمر على قبور الأموات، وكلما مر الرجل بقبر رجل من المقبورين تجدد صياحه بهذا التمنى (يا ليتنى مكانه)، وفى هذا ما فيه من الدلالة على شدة الفتن وكيف أن الرجل يتعلق بما فات خوفا من البلاء المنتشر وفزعا من الفتن المتوالية.

وقد أغنت الإضافة فى قوله: (بقبر الرجل) عن تفصيل يتعذر أو عن تفصيل تركه أرجح، لأن المتمنِّى إما أن يكون جاهلا بأسماء المقبورين؛ لكثرتهم وتجدد مروره عليهم فيتعذر عليه معرفة أسمائهم وهذا هو الأرجح فى رأيى، وإما أن يكون عالما بأسمائهم، ولكن لا غرض يتعلق ولا فائدة تعود على المعنى فضلا عن كثرتهم، فترك التفصيل أرجح، والتعريف بالإضافة أغنى عن كل ذلك.

وقد جاء فى الفتح أن ابن بطال أرجع تمنى الموت عند ظهور الفتن إلى الخوف من ذهاب الدين بغلبة الباطل وأهله وظهور المعاصى والمنكر وقيد ابن حجر هذا السبب بأهل الخير، أما غيرهم فقد يكون التمنى لما يقع لأحدهم من المصيبة فى نفسه أو أهله أو دنياه، وإن لم يكن فى ذلك شيء يتعلق بدينه، ويؤيده ما أخرجه مسلم عن أبى هريرة: (لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمرغ عليه: ويقول يا ليتنى

---

(١) فتح البارى لابن حجر، دار المعرفة، بيروت جـ ١٣، صـ ٧٥.

(٢) ابن حجر فتح البارى، جـ ١٣، صـ ٧٥.

مكان صاحب هذا القبر وليس به الدِّين إلا البلاء) وقال الطيبى: ليس التمنى لأمر أصابه من جهة الدين بل من جهة الدنيا [١].

وأيًا ما كان الدافع وراء تمنى الموت فإن السبب المباشر فى هذه الأمنية هو وقوع البلاء والشدائد وكثرة الفتن والمصائب، حتى يكون الموت الذى هو أعظم المصائب أهون على الرجل من مصائب آخر الزمان وشدائده، ومن هنا يتمنى الرجل أهون المصيبتين فى اعتقاده، وتكون هذه الأمنية محببة إلى قلبه مشتهاة إلى نفسه؟ لأنها فى اعتقاده تنجيه من شدة الفتن وفظاعة البلاء وتريحه من هول المصائب وكثرة الشدائد.

التمنى فى غبطة أهل القرآن وأصحاب المال:

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: (لا حسد إلا فى اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق، فقال رجل: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل)[٢].

يريد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من هذا الحديث أن يعلم أمته خصلتين من خصال الخير تستوجبان المنافسة فى تحصيلهما، وهذا الأمر يستوجب أسلوبا خاصا وقدرات عالية يستطيع فى ضوئها المعلم أن ينهض بتوصيل المعنى الذى يريده إلى السامعين، والمعلم الحاذق هو الذى يلجأ فى تحقيق ذلك إلى أسلوب يثير الإنتباه ويشوق الأفئدة لتلقى المعنى المقصود فإذا تحقق له هذا ألقى المعنى الذى يريده وقد صادف عقولا يقظة وأسماعا مصغية ونفوسا متطلعة متشوقة فيتمكن فيها ويتقرر.

والأسلوب الذى سلكه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا الحديث ليحظى بإنتباه السامعين هو أسلوب (التوشيع)[٣]، وهو طريق من طرق الإيضاح بعد الإبهام،

---

[١] ينظر : ابن حجر، فتح البارى، جـ ١٣، صـ ٧٥، وعمدة القارى جـ ٢٠، صـ ٩٦.

[٢] ابن حجر: فتح البارى، ك فضائل القرآن، ب إغتباط صاحب القرآن، جـ ٨، صـ ٦٩١.

[٣] التوشيع فى اللغة: لف القطن بعد الندف، وفى الاصطلاح: أن يؤتى فى عجز الكلام بمثنى مفسر بإسمين أحدهما معطوف على الأخر أو بجمع مفسر بجملة أسماء معطوف بعضها على بعض، ينظر اللسان / مادة (وشع)، والإيضاح، جـ١، صـ٣٠٢، وتحرير التحبير، صـ٣١٦، والطراز، جـ٢، صـ٤٤٣، ومواهب الفتاح، جـ٣، صـ٢١٦.

وقد أدرك النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بلاغة هذا الأسلوب وقدرته على تهيئة المخاطبين فوظفه توظيفا ينم عن بلاغة عالية فجاء حسنا رائقا يأخذ بالألباب ويستولى على العقول، ويحقق الهدف والغاية المرجوة من الكلام.

والإبهام يلجىء كل مستمع إلى أن يصغى للمعنى، ويحرص ويتأهب لمتابعة التفصيل والإيضاح بتشوق ولهفة؛ حتى يتمكن المعنى فى ذهنه ويقف على معالم هاتين الخصلتين.

ولو أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: لا حسد إلا فى رجل علمه الله القرآن....،ورجل آتاه الله مالا...، لما كان للكلام هذا الوقع الذى أحدثه أسلوب التوشيع من إبراز المعنى فى صورتين: إحداهما مبهمة مجملة، والأخرى: موضحة لها ومفسرة، ومن تمكين للمعنى فى النفس؛ لأن المعنى إذا ألقى مبهما مجملا تشوقت النفوس إلى معرفته مفصلا موضحا، فإذا ما جاء كذلك تمكن فيها فضل تمكن، ومن اكتمال لذة العلم بالشىء، فإن النفس إذا حصلت الشىء دفعة واحدة لم يتقدم حصول اللذة به ألم، وإذا حصلته من وجه دون آخر تشوقت إلى تحصيل ذلك الوجه المجهول، فيحصل لها من الحرمان ألم، ومن العلم به بعد جهله لذة، وما أجمل اللذة عقب الألم والعلم بعد الحرمان.

وهاتان الخصلتان اللتان شوق الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إليهما ينبغى على كل مسلم أن يتنافس فى تحصيلهما، ومن هنا أكد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على التمسك بهما والترغيب فيهما حيث قصر الحسد الذى هو بمعنى الغبطة على هاتين الخصلتين دون غيرهما قصرا إضافيا، وكأنه قال: لا غبطة أعظم من الغبطة فى هاتين الخصلتين.

والحديث الشريف فيه شاهدان من شواهد التمنى جاءا تفسيرا لما أجمل فى قوله: (لا حسد إلا فى اثنتين)، الشاهد الأول خاص بتمنى القرآن: (رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له، فقال ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل)، والشاهد الثانى خاص بتمنى المال: (ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق، فقال رجل ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل).

والتمنى فى الخصلتين يندرج تحت تمنى المحال؛ لأن المتمنيين يطلبان غير الواقع فى الماضى واقعا فيه مع حكم العقل بامتناعه، إنهما يتمنيان حصول شىء فى زمن قد مضى وولى، وأنى للماضى أن يعود؟ ولكنها رغائب النفوس ومشتهياتها وأشواق الروح وتطلعاتها، وهذه الأشواق وتلك الرغائب لا تحدها حدود؛ لأنها ليست مقيدة بحدود الإمكان.

الأمنية الأولى:

والخصلة الأولى الموضحة لإبهام المتَّمنَّى فى مطلع الحديث نرى فيها رجلا يتمنى أن لو أوتى مثل صاحب القرآن، فعمل مثل ما يعمل، وتلك أمنية تحبها النفوس الخيرة وتشتاق إليها القلوب النقية السليمة التى تتنافس فى الزلفى إلى الله ــ عز وجل ــ وتتسابق فى الخيرات، والتمنى يصور تلك المشاعر أدق تصوير، فهو يبرز هذه الرغبة وينم عن تلك النية الصادقة التى تعكس تعلق الرجل بما فات من تعلم القرآن والعمل به وتلاوته آناء الليل وآناء النهار، مثل حال جاره، وأنى للفائت أن يُدرك؟ ومن هنا لا نعدم فى الرجل شعورا بالأسى والحزن على الماضى الذى ذهب دون أن تتحقق فيه تلك الأمنية.

وإذا قيل: لماذا قيد المتمنِّى أمنيته بالزمن الماضى فجعلها مستحيلة؟ وهلا قال: ليتنى أوت مثل ما أوتى فلان، أو ليت لى مثل ما أوتى فلان، حتى تخرج أمنيته من دائرة المحال إلى دائرة البعيد الممكن، قلت: لا بد من وضع عدة احتمالات، أولها: أن نعمة القرآن من أعظم النعم، وتتطلب من صاحبها أن يتعاهد القرآن خشية التفلت، وأن المتمنِّى لم يجد فى نفسه عزما لتحمل تلك المهمة وتعاهدها فجعلها أمنية من أمانيه، ثانيها أن العمل بالقرآن، وتلاوته آناء الليل وآناء النهار نعمة من أعظم النعم لا تنال إلا بتوفيق من الله ــ تعالى ــ وهمة عالية من صاحبها، وأن المتمنى لم يجد فى نفسه أهلا لنيل هذه النعمة؛ لضعف فيه، فلم يحرم نفسه من جعلها أمنية من أمانيه، ثالثها: أن يكون العمر قد مضى بالرجل، وأنى له استرجاع أيامه ولياليه؛ ليتلو فى آنائها القرآن؟

وفى ضوء تلك الاحتمالات نجد عذرا للمتمنِّى، حيث إنه وجد نفسه أمام طلب لا مجال ــ فى اعتقاده ــ لتحقيقه فصاغه فى أمنية متعلقة بما مضى وفات أوانه إشارة إلى امتناع وقوعها واستحالة حصولها.

ولنمعن النظر فى نظم الحديث لنرى صحة تلك الافتراضات أو بعضها، وأن الرجل كان يطلب أمرا ــ بالنسبة له ــ بعيد المنال: (رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له، فقال ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل)، فتنكير (رجل) جاء للتعظيم، ومن هنا كان جديرا بهذه النعمة أهلا لتلك الهبة، وفى الكلام إيجاز بالحذف "والتقدير: خصلة رجل، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه"[١] .

وإسناد الفعل (علمه) إلى الله ــ عز وجل ــ فيه تأكيد لسمو مكانة الرجل عند ربه، حيث تولى ــ سبحانه ــ تعليمه وتفقيهه، ولم يكل ذلك لأحد من البشر، والذى تعلمه الرجل من ربه هو القرآن الكريم كتاب المبدأ والمعاد ومعجزة خاتم الأنبياء، فياله من علم عظيم تعلمه الرجل، والفاء فى (فهو) تفيد الترتيب والتعقيب وسرعة العمل، فالرجل لم يفرط ولم يقصر، فما أن علم حتى عمل، والمضارعة فى (يتلوه) تشير إلى أن تلاوة القرآن كانت ديدن الرجل لا تنفك عنه بل تتجدد منه تجدد الليل والنهار.

والطباق بين (الليل والنهار) يشير إلى أن الرجل اغتنم الزمن كله فى تلاوة القرآن والعمل به، أرأيت كيف كان الرجل موهوبا من ربه بتلك النعمة موفقا لتلك الطاعة، ومن هنا نستشعر عظمة طلب الجار وأن تحقق طلبه لم يخطر له ببال، فأخرجه مخرج الأمنية المحال حصولها.

ولست أقل من قدر صاحب الأمنية، لأن أمنيته تدل على خيريته وصدق نيته، فما أمنيته سوى ترجمة لخواطره الحبيسة المليئة بالأسى والشكوى من ماض لم يكن فيه مثل صاحب القرآن، ونظم الحديث يشير إلى سمو مكانة الرجل، فالفاء فى قوله: (فسمعه جار له) تشير إلى سرعة ترتيب السماع على التلاوة، وأن الرجل كان يبحث جاهدا عن أهل الطاعة؛ ليتنافس معهم فى العبادة ويجاورهم فى السكنى، وجاء المسند إليه (جار) نكرة حيث لا يتعلق بتعريفه غرض، فضلا عن إفادة التعظيم لهذا الجار، فتسمُّعه لم يكن تطلعا لعورة صاحب القرآن، أو بحثا عن أسراره وعيوبه، وإنما كان إنصاتا لكلام الله ــ تعالى ــ وتشهيا لتلك الطاعة، وتأثرا بصاحبها وتنافسا معه فيها.

---

[١] ابن حجر: فتح البارى، جـ١، صـ١٦٧.

ووصف المسند إليه بالجار والمجرور (له) إشارة إلى رجاحة عقل المتمنِّى، وأنه باحث عن أهل الصلاح ليتنافس معهم فى الخير، ومن هنا جاور صاحب القرآن؛ ليسعد بسماع تلاوته ويهنأ بمجالسته.

ومن البدهى أن المتمنِّى حاول تقليد صاحب القرآن فى تلاوته وعمله فلم يستطع فشعر بالأسى والحزن، فجاشت نفسه بهذا التمنى؛ إظهارا للرغبة فى الفائت واعتذارا لربه واستدرارا لعطفه.

وأمنية الرجل هنا مكونة من شقين، أو إن شئت فقل إنهما أمنيتان، أولاهما: (ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان)، أى: ليتنى أوتيت القرآن، وعلمنى الله ـتعالىـ إياه، وقد بنى الفعلان: (أوتيت ـ أُوتى) للمفعول؛ للعلم بالمؤتِى الحقيقى وهو الله ـ تعالى ـ الواهب المعطى، وثانيهما: (فعملت مثل ما يعمل)، وهذه الأمنية تشير إلى خيرية المتمنِّى وصلاحه، فهو لم يتمن القرآن ليتفاخر به، أو ليقال قارىء، وإنما يريد أن يعمل به طاعة وتواضعا، وأن يتلوه عبادة وتقربا.

وأتى بالفعل المسند إلى ضمير صاحب القرآن مضارعا (يعمل) مخالفا للفعل الذى أسند إلى ضمير المتمنِّى حيث أتى به ماضيا (فعملت)؛ إشارة إلى أن صاحب القرآن لا يزال يتغنى بالقرآن، تتجدد تلاوته على لسانه تجدد الزمن، وأن هذه الصورة التى دفعت الجار للتمنى لا تزال تتراءى أمام عينيه، وتهمس فى سمعه فتثير فى نفسه أشواقا إلى مثل تلك الطاعة.

وقد تمنى الجار (مثل) ما أوتى صاحب القرآن، و(مثل) ما يعمل لا عينهما؛ احترازا من الحسد، وفى هذا ما يدل على أن المراد (بالحسد) المذكور هنا: الغبطة[1]، "والغابط هو الذى يتمنى مثل نعمةَ صاحبه من غير أن تزول عنه، والحاسد هو الذى يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه"[2]

ومن الملاحظ أن الجمل فى الحديث معطوف بعضها على بعض بالفاء؛ إشارة إلى تعاقب الأفعال وسرعة تتابعها، فصاحب القرآن ما أن علمه الله ـ تعالى ـ القرآن حتى أسرع بتلاوته والعمل به، وما أن تلاه حتى سمعه جاره المتشوق لأعمال الطاعة،

---

(١) ينظر: ابن حجر، فتح البارى، جـ١، صـ١٦٧.

(٢) الزمخشرى: الكشاف، جـ٣، صـ٤٣٢، وينظر البيضاوى: جـ٧، صـ٨٧.

وما أن سمعه الجار حتى تمنى أن لو أوتى مثل ما أوتى فعمل مثل ما يعمل، وتلك سمات الصالحين الذين يغتنمون الزمن فى الطاعة ولا يتوقفون إلا ريثما يستعيدون النشاط ويجددون الهمة لمتابعة الطاعة والقربى.

الأمنية الثانية:

والخصلة الثانية الموضحة لإبهام المثنى فى مطلع الحديث نرى فيها رجلا يتمنى أن لو أوتى مثل صاحب المال فعمل مثل ما يعمل، وتلك أمنية عزيزة المنال؛ لتعلقها بما فات ومضى، وهى تصور لنا مشاعر الأسى والحزن والشكوى من ضيق ذات اليد مما يترتب عليه عدم الإنفاق، فالرجل يتمنى أن لو كان صاحب مال، لا ليكتنزه بل ليهلكه فى الحق.

ومن دقة التعبير النبوى فى نظم هذه الأمنية أن نكَّر (مالا)؛ حتى يشمل القليل والكثير، وحتى يدخل فيه أنواع المال من ذهب وفضة ودراهم ودنانير وخلافه، فالتنكير هنا يفيد التعميم والتكثير[1]، وعبر عن الإنفاق بالإهلاك بطريق الإستعارة التصريحية، ليدل على أن إنفاق الرجل يأتى على المال كله فلا يبقى منه شيئا، والاستعارة فيها تصوير لمغالبة النفس المجبولة على الشح، وقهر للذات المطبوعة على الحرص.

ولما أوهم قوله: (يهلكه) احتمال تبذير المال وإتلافه، وإنفاقه فيما لا ينبغى جاء الاحتراس[2] البديع فى قوله: (فى الحق)، أى فى الطاعات؛ دفعا لهذا التوهم، وإزالة لما قد يتوهم من الإسراف المذموم فيما لا ينبغى من الملذات والشهوات[3]، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وضع بهذا الاحتراس ضابطا مهما من ضوابط إنفاق المال، فلا يجوز الإنفاق فى غير الطاعة؛ لأنه إسراف مذموم، ولا يحل التبذير فى ملذات الدنيا لأنه حمق منهى عنه.

---

(1) ينظر: شرح الكرمانى، جـ٢، صـ٤٢، وعمدة القارى، جـ٢، صـ ٥٨، وفتح البارى، جـ٨، صـ٦٩٢.

(2) الاحتراس هو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع هذا الوهم، ينظر: الإيضاح، جـ٢، صـ٣١٠، والإتقان،جـ٢، صـ٧٤، وشرح التلخيص، جـ٣، صـ٢٣١.

(3) ينظر: ابن حجر، فتح البارى، جـ١، صـ ١٦٧.

وأمنية الرجل هنا مثل أمنية سابقه مكونة من شقين، أولها: (ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان)، أى: ليتنى أوتيت مالا كثيرا مثل فلان، وثانيهما: (فعملت مثل ما يعمل)، وهذه الأمنية تكشف عن نية الرجل وهدفه من تلك الأمنية، إنه يريد مالا لينفقه فى الحق ويتصدق به فى سبل الخير، ومن دقة البيان النبوى أن الرجل تمنى مثل المال ومثل العمل لا عينهما؛ حذرا من الحسد.

وبعد: فقد كان لأسلوب التمنى فى الحديث الشريف دورا مهما فى إبراز الخصلتين المرغَّب فيهما: خصلة تعلم القرآن وتلاوته والعمل به، وخصلة طلب المال وإنفاقه فى الحق ، وكيف أن التمنى أبرز الخصلتين فى صورة الأمرين الذين يتنافس فيهما ويتسابق فى تحصيلهما، ويكون فواتهما أمرا يستدعى الحزن والأسى، وقد تعانق أسلوب التمنى مع الإطناب بطريق الإيضاح بعد الإبهام؛ تهيئة وشحذا للمخاطبين؛ حتى يتنبهوا لما يلقى إليهم،وتشويقا لهم حتى يتعرفوا على هاتين الخصلتين المرغب فيهما، ثم الاحتراس الجميل (فى الحق) الذى وضع من خلاله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ضابطا مهما من ضوابط إنفاق المال.

التمنى فى مقام صيام التطوع:

عن أبى قتادة الأنصارى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سُئِل عن صومه؟ قال: فغضب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وببيعتنا بيعة، قال: فسئل عن صيام الدهر؟ فقال: لا صام ولا أفطر (أو ما صام وما أفطر)، قال: فسئل عن صوم يومين وإفطار يوم؟ قال: ومن يطيق ذلك؟ قال: وسئل عن صوم يوم وإفطار يومين؟ قال: ليت أن الله قوانا لذلك، قال وسئل عن صوم يوم وإفطار يوم؟ قال: ذاك صوم أخى داود ــ عليه السلام ــ، قال: وسئل عن صوم يوم الاثنين؟ قال ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت، أو (أنزل على فيه)، قال : فقال: صوم ثلاثة من كل شهر، ورمضان إلى رمضان: صوم الدهر، قال: وسئل عن صوم يوم عرفة؟ فقال: يكفر السنة الماضية والباقية، قال: وسئل عن صوم يوم عاشوراء؟ فقال: يكفر السنة الماضية....[1]

---

[1] مسلم: صحيح مسلم، ك الصيام، ب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، جـ٢، صـ٢٥٣.

يتضمن الحديث الشريف أسئلة من الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ وأجوبة من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وأول سؤال وجّه للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان عن صومه، وقد حذف السائل فى كل الأسئلة؛ لأنه لا يتعلق بذكره غرض، وبنى الفعل للمفعول؛ مسارعة إلى المطلوب الأهم وهو: حقيقة صوم النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وكثيرا ما كان بعض الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ يسألون عن أعمال النبى ــ صلى الله عليه وسلم؛ كى يعملوا مثلها وأحيانا يريدون أن يزيدوا عليها، فينهاهم النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن المغالاة فى العبادة، ومن هنا لم يجب النبى ــ صلى الله عليه وسلم على هذا السؤال وإنما اعتراه الغضب "قال العلماء: سبب غضبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه كره مسألته؛ لأنه يحتاج إلى أن يجيبه ويخشى من أن يترتب على جوابه مفسدة، وهى أنه ربما اعتقد السائل وجوبه أو استقله أو اقتصر عليه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ؛ لشغله بمصالح المسلمين وحقوقهم وحقوق أزواجه وأضيافه والوافدين إليه؛ لئلا يقتدى به كل أحد فيؤدى إلى الضرر فى حق بعضهم، وكان حق السائل أن يقول: كم أصوم؟ أو كيف أصوم؟ فيخص السؤال بنفسه؛ ليجيبه بما تقتضيه حاله كما أجاب غيره بمقتضى أحوالهم"[1]

وفى قول عمر ــ رضى الله عنه ــ: (رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وببيعتنا بيعة)، اعتذار للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عما أوجب غضبه، واسترضاء له وتطييب لخاطره، وتهدئة لغضبه ــ صلى الله عليه وسلم .

والأسئلة فى الحديث بعد السؤال الأول جاءت عامة لا تتعلق بعمل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فكان منها أنه سئل عن صيام الدهر فقال: (لا صام ولا أفطر (أو ما صام وما أفطر)، وهى جملة دعائية، أى: لا صام صوما مقبولا ولا أفطر إفطارا شهيّا، وهى وإن كانت دعائية إلا أنها فى معنى الخبر، أى: لا يجوز صيام الدهر؛ لأنه مخالف لشرع الله ــ تعالى ــ وسنة نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ولما يترتب عليه من التقصير فى واجبات كثيرة وحقوق عديدة.

والسؤال الثالث كان عن صوم يومين وإفطار يوم، وكان ردّ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عليه بقوله: (ومن يطيق ذلك؟)، والجواب هنا جاء بصيغة الاستفهام، وقد أريد بالاستفهام النفى، أى: نفى أن يوجد أحد من الناس يطيق هذا النوع من

---

[1] مسلم بشرح النووى، ك الصيام، ب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، جـ٨، صـ٢٩١.

الصوم، فيداوم على صوم يومين وإفطار يوم؛ لما فيه من المشقة، وأن الإنسان تعتريه أحوال من مرض وعمل وهرم تمنعه من الاستمرار على هذا النوع من الصيام.

والسؤال الرابع كان عن صوم يوم وإفطار يومين، وكان ردّ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عليه بقوله: (ليت أن الله قوانا لذلك)،والإتيان بالجواب هنا فى صورة التمنى فيه إشارة إلى أن هذا الصوم مرغوب فيه تشتهيه النفوس التى ترغب فى العبادة والتقرب إلى الله ــ تعالى ــ والتمنى هنا من قبيل تمنى المحال؛ لأن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يطلب غير الواقع فى الماضى واقعا فيه مع حكم العقل بامتناعه، إنه يتمنى أن لو كان الله ــ عز وجل ــ أعطانا من القوة ما نتمكن من المداومة على هذا النوع من الصيام (صيام يوم وإفطار يومين)، وإذا لم نمتلك تلك القوة التى تمكننا من هذا الصوم وهو محبوب إلى قلوبنا وتشتهيه نفوسنا فليس أمامنا إلا أن نخرجه فى صورة التمنى أسى على فواته وتشوقا لحصوله، وهذا ما فعله النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ جوابا على سؤال السائل.

وقد جاء فى شرح النووى: "قال القاضى: قيل معناه: وددت أن أمتى تطوقه؛ لأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يطيقه وأكثر منه، وكان يواصل ويقول: (إنى لست كأحدكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقين) قلت: ويؤيد هذا التأويل قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الرواية الثانية: (ليت أن الله قوانا لذلك)، أو يقال: إنما قال؛ لحقوق نسائه، وغيرهن من المسلمين المتعلقين به والقاصدين إليه"[1].

والسؤال الخامس كان عن صوم يوم وإفطار يوم، وكان ردّ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عليه بقوله: (ذاك صوم أخى داود ــ عليه السلام ــ) وداود ــ عليه السلام ــ نبى من الأنبياء ليس كأحد من الناس، فالله ــ عز وجل ــ أعطاه من القوة ما يطيق به هذا النوع من الصوم، وهذا النوع من الصوم أشد من سابقه، وبما أن صوم يوم وإفطار يومين يعدُّ أمنية من الأمانى؛ لأنه يتعلق بأمر لم يحدث فى الماضى، وهو أن الله ــ تعالى ــ لم يقونا عليه، فمن باب أولى صيام يوم وإفطار يوم؛ لأنه من المشقة بمكان، ولا يطيقه إلا من قواه الله ــ تعالى ــ لذلك كنبيه داود ــ عليه السلام ــ

---

[1] مسلم بشرح النووى: جـ٨، صـ٢٩١، ٢٩٢.

وبقية الحديث فيه إرشاد للصوم المستحب الذى هو فى طوق الإنسان، ويستطيع أن يداوم عليه ويستمر على فعله، ويمثل الوسطية فى العبادة حيث لا إفراط ولا تفريط، فأشار ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى استحباب صيام يوم الاثنين وثلاثة أيام من كل شهر، فضلا عن صيام شهر رمضان ، وصيام يوم عرفة وعاشوراء، وأشار ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى فضائل هذا الصيام، فيوم الاثنين ولد فيه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر ورمضان إلى رمضان صيام الدهر، ويوم عرفة يكفر سنة ماضية وسنة قابلة، ويوم عاشوراء يكفر سنة ماضية.

وبهذه الطريقة التعليمية التربوية وجّه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أصحابه إلى أنواع من الصيام تقوم مقام صيام الدهر فى الأجر، وإلى أيام عظيمة من أيام الله ــ تعالى ــ صيامها يكفر ذنوب صائمها ويرفع درجاته، تخفيفا منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ورحمة بأمته.

ثانيا: المتمنى الممكن البعيد :

المتمنى الممكن قليل الورود فى الأساليب، وهذا ما جعل العلماء يقولون: "(ليت) حرف من حروف التمنى يتعلق بالمستحيل غالبا، وبالممكن قليلا"[1]، ومن هنا فإننى لم أعثر فيما قرأت فى البيان النبوى إلا على شاهدين وجدت فيهما (ليت) تتعلق بالمتمنَّى الممكن المستبعد فى نفس قائله.

فعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: قالت عائشة: أرق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذات ليلة، فقال: ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة، إذ سمعنا صوت السلاح، فقال: من هذا؟ قيل: سعد يا رسول الله، جئت أحرسك، فنام النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى سمعنا غطيطه.[2]

فمدار الحديث الشريف منصب على جملة التمنى: (ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة) وتلك أمنية تندرج تحت المتمنَّى الممكن؛ لأن الحراسة التى تمناها النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى تلك الليلة قد وجدت وحصلت فى شخص الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنه .

---

[1] ابن حجر: فتح البارى، جـ١٣، صـ٢١٩.

[2] صحيح البخارى: ك التمنى، ب قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: ليت كذا وكذا، جـ٦، صـ٢٦٤٢.

أما أسباب تلك الأمنية فمرجعها إلى الأخذ بالحذر والاحتراس من العدو، وقد أورد البخارى الحديث بلفظ آخر فى كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله، عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ: كان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ سهر، فلما قدم المدينة قال: (ليت رجلا من أصحابى صالحا يحرسنى الليلة)[1]، فتصنيف البخارى للحديث تحت كتاب الجهاد إشارة إلى أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان راجعا من إحدى غزواته، وأن السهر كان قبل القدوم على المدينة.

ومعروف أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا كان فى سفر ورجع لا يطرق المدينة بليل، وإنما يبيت على مشارفها ويدخلها نهارا، ويبدو أيضا أنه كان فى حاجة إلى قسط من النوم بعد مشقة السفر وجهد الأرق، وأن أصحابه ــ رضوان الله عليهم ــ كانوا أشد إرهاقا وأكثر تعبا من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن هنا نستطيع تفسير طلب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الحراسة، وإخراجه لهذا الطلب فى صورة التمنى، والأمنية هنا ليست مستحيلة الحصول وإنما هى بعيدة والبعد فيها بعد نفسى مرده إلى شعور النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإحساسه بذلك البعد، لأن الإرهاق والتعب قد أصاب الجميع، والجميع يحتاج إلى النوم.

وكان يمكن للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يخرج هذا الطلب فى صورة الأمر ويوجهه إلى صحابى معين، ولكنه لم يفعل حتى لا يثقل على أصحابه وإنما جعله فى صورة التمنى حتى تكون الحراسة فضيلة لمن يفعلها.

وفى إخراج طلب الحراسة فى صورة التمنى أيضا إفساح للمجال أمام من يجد فى نفسه المقدرة على الوفاء بهذه المهمة، وقد وجد الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنه ــ فى نفسه المقدرة على تلك المهمة، فنال تلك الفضيلة.

وقوله (صالحا) تتميم[2] حسن جىء به للدلالة على تعيين أهم صفات من يحرس النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ لا بد أن يكون صالحا بما تتضمنه كلمة الصلاح من التقوى والأمانة وتحمل المسئولية لأنه لن يحرس رجلا من عامة الناس وإنما

---

[1] صحيح البخارى: ك الجهاد، ب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله، جـ٣، صـ١٠٥٧.

[2] التتميم: هو (أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة) الإيضاح، جـ٢، صـ١٤٥، ١٤٦.

سيحرس رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقائد المسلمين وهاديهم وإمامهم، فالأمر ليس سهلا وإنما جد خطير يحتاج إلى يقظة فارس لا يشق له غبار، كما ألمح فى كلمة (صالحا) معنى الصلاح للحراسة أى: صالحا لحماية النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقائد المسلمين من غيلة العدو وبخاصة أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان هدف العدو وغاية الكفار،وبغية الخائنين.

وقول عائشة ــ رضى الله عنها ــ: (إذ سمعنا صوت السلاح) فيه إشارة إلى أن سعدا ــ رضى الله عنه ــ جاء متهيئا لهذه المهمة جادا فى تحمل مسئوليتها مشهرا سلاحه يقرع بعضه ببعض مما يقطع السبيل أمام من يريد النيل من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وتلك أهم صفات الحارس أن يكون متيقظا نبيها شجاعا حتى يستطيع إبعاد الخطر عمن يحرسه.

والاستفهام فى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (من هذا؟) للتصور، لأن (من) يطلب بها تصور من يعقل، وقول سعد ــ رضى الله عنه ــ: (سعد يا رسول الله) يستفاد منه تعيين المستفهم عنه، وقوله: (جئت أحرسك) بيان لسبب صوت السلاح والمجىء، "وفى رواية لمسلم: (وقع فى نفسى خوف على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم نام)"[1]

وفى هذا إشارة إلى يقظة الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ وخوفهم على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحرصهم على إبعاد الخطر عنه وافتدائه بأغلى ما يملكون، فبمجرد أن جرى إحساس بالخوف على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى صدر سعد ــ رضى الله عنه ــ إذ به يتقلد سلاحه ويذهب مسرعا إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، ويصك سلاحه محدثا صوتا مدويا؛ ليرعب به قلوب أهل السوء ويطمئن له قلب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيدعو له وينام آمنا مطمئنا.

وفى الحديث "الأخذ بالحذر والاحترس من العدو، وأن على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل، وفيه الثناء على من تبرع بالخير وتسميته (صالحا)، وإنما عانى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك مع قوة توكله؛ للاستنان به فى ذلك، وقد ظاهر

---

[1] صحيح مسلم: ك فضائل الصحابة، ب فى فضل سعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنه ــ، جـ٤، صـ١٨١.

بين درعين، مع أنهم كانوا إذا اشتد البأس كان أمام الكل، وأيضا فالتوكل لا ينافى الأخذ بالأسباب لأن التوكل عمل القلب وهى عمل البدن"[١]

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: "لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله ــ عز وجل ــ أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله ــ عز وجل ــ: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله ــ عز وجل ــ هؤلاء الآيات على رسوله: (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء)"[٢]

فالغرض من الحديث الشريف منصب على جملة التمنى (يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب)، وتلك أمنية تندرج تحت المتمنَّى الممكن، لأنها تحققت وحصلت إذ تكفل الله ــ تعالى ــ بإبلاغ أمنية الشهداء لإخوانهم فى الدنيا فى صورة قرآن يتلى على الأسماع إلى قيام الساعة، فأمنية الشهداء هنا ليست مستحيلة الحصول، وإنما هى بعيدة، والبعد فيها بعد نفسى مرده إلى شعور الشهداء وإحساسهم بذلك البعد لأن أحوال الآخرة غيب عن أهل الدنيا.

وإنما تمنى الشهداء علم إخوانهم بحالهم؛ ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم بالجهاد فى سبيل الله ــ تعالى ــ والدفاع عن الدين المفضيين بأهلهما إلى الجنة، وفيه تنبيه على عظيم مكانة الشهداء عند ربهم، وترغيب فيما أعده الله ــ تعالى ــ لهم من الثواب العظيم والعيشة الراضية.

وبعد: فقد تنوع التمنى بـ(ليت) فى البيان النبوى مبرزا أحوالا نفسية متباينة ومصورا لحاجات النفوس، فبينما نراه محكيا على ألسنة الرجال فى آخر الزمان تمنيا للموت وغبطة لأهل القبور؛ فزعا من أهوال آخر الزمان، ومحكيا على ألسنة المتنافسين فى الخيرات الغابطين لأهل القرآن والمال، نجده واردا على لسان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ متمنيا أن لو كان الله ــ عز وجل ــ قوى الناس لصيام يوم وإفطار يومين.

---

[١] فتح البارى: جـ٦، صـ٨٢، وينظر: صحيح مسلم بشرح النووى، جـ١٥، صـ١٧٧.

[٢] مسند أحمد، جـ٥، صـ٢٩٩، والآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

وبينما نجد التمنى يتعلق بالمحال كما فى الأمانى المذكورة إذ بنا نجده يتعلق بالممكن كما جاء على لسان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تمنى الحراسة، وكما جاء على لسان الشهداء فى تمنى علم إخوانهم فى الدنيا بحالهم عند ربهم ترغيبا فى الجهاد وتشويقا لما أعده الله ـ تعالى ـ للشهداء من المكانة الرفيعة والنزل الكريم، وهكذا جاء التمنى بـ (ليت) فى البيان النبوى مصورا لرغائب النفوس ومشتهياتها فى أسلوب بلاغى عال وظفه المعصوم ـ صلى الله عليه وسلم ـ توظيفا رائعا ينم عن بلاغة فذة ، ومعرفة تامة بمتطلبات المقامات وحاجاتها، ولهذا فقد جاء التمنى بـ(ليت) فى بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أكمل ما تكون عليه بلاغة بشر، فحقق بذلك الإفادة والإمتاع فى آن واحد.

المبحث الثالث
التمنى بـ (ليت) بلاغته وطرقه فى البيان النبوى

اتضح فيما سبق أن الآداة الموضوعة للتمنى أصالة هى (ليت) وأنها فى البيان النبوى لم تفد معنى سوى التمنى، يقول الدكتور/ محمد أبو موسى: "وإذا كنا نجد أدوات الاستفهام والنهى والنداء وغيرها تخرج من معانيها الأصلية وتستعمل فى معان أخر، فإننا لا نجد الأمر كذلك فى التمنى، وإنما يتكلم البلاغيون فيه عن إفادة التمنى بغير أداته الأساسية التى هى (ليت)، ولم يتكلموا عن إفادة (ليت) معانى غير التمنى؛ ولعل هذا لعراقتها فى التمنى، وأنها لم تتخلص منه ولم تجر فى غير هذا المعنى القلبى الحميم"[١]

وإذا كانت (ليت) لم تجر فى غير التمنى فإن هذا المعنى كثيرا ما يفاد بألفاظ غير (ليت)؛ لأغراض بلاغية يقصدها المتكلم، ومن هذه الألفاظ: أدوات الاستفهام والأمر والترجى والشرط، وأعظم مواقع التمنى وأحسنها ما أفيد بألفاظ ليست موضوعة للدلالة عليه أصالة فيصاحبها من ظلال معانيها الوضعية ما يكشف عن أغراض المتكلم وينم عما يجول فى صدره، وسنرصد فى هذا المبحث ــ إن شاء الله ــ تلك الطرق ونحاول كشف اللثام عن بلاغتها.

أولا: التمنى بطريق الاستفهام :

لحظ البلاغيون فرقا نفسيا دقيقا بين التمنى بأداته الأصلية (ليت) والتمنى بطريق الاستفهام، فالتمنى بـ(ليت) يتعلق بالمحال أو البعيد، والتمنى بطريق الاستفهام يبرز المتمنَّى المحال أو البعيد الحصول فى صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع، وهذا ينبىء بكمال العناية به وشدة الرغبة فى وقوعه[٢]، كما سنرى فى الشواهد الآتية:

---

[١] دلالات التراكيب: صـ٢٠٠.

[٢] ينظر: المطول، صـ٢٢٥، شروح التلخيص: جـ٣، صـ٢٤٠.

عن جرير بن عبد الله قال: كان فى الجاهلية بيت يقال له: ذو الخلصة وكان يقال له: الكعبة اليمانية والكعبة الشأمية[١]، فقال لى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: هل أنت مريحى من ذى الخلصة؟ قال فنفرت إليه فى خمسين ومائة فارس من أحمَسَ، قال: فكسرناه، وقتلنا من وجدنا عنده، فأخبرناه فدعا لنا ولأحمَسَ.[٢]

فذو الخلصة "اسم البيت الذى كان فيه الصنم، وقيل: اسم البيت: الخلصة، واسم الصنم: ذوالخلصة"[٣]، وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (هل أنت مريحى من ذى الخلصة) "طلب يتضمن الأمر، وخص جريرا بذلك؛ لأنها كانت فى بلاد قومه، وكان هو من أشرافهم، والمراد بالراحة: راحة القلب، وما كان شىء أتعب لقلب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من بقاء ما يشرك به من دون الله ــ تعالى ــ"[٤]

وقد أشار بن حجر إلى أن الاستفهام تضمن معنى الأمر، وبما أن هذا صنم يعبد من دون الله ــ تعالى ــ، وأنه كان فى بلاد الكفر، وكان له حماته وحراسه؛ فإن الاستفهام يتضمن بجانب الأمر معنى: التمنى، إذ إن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما طلب من جرير ــ رضى الله عنه ــ أن يريحه من ذى الخلصة كان يتمنى أن تتحقق هذه المهمة حتى يستريح فؤاده من هذا الذى يعبد من دون الله ــ تعالى ــ.

والأمر المتمنَّى هنا ليس مستحيلا وإنما هو فى نفس النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الأمور البعيدة الحصول، لأنه يتوقف على غارة وقتال وكر وفر وحرب، ولذا فرح النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما تحققت المهمة بانتصار جرير ــ رضى الله عنه ــ وتحطيم الصنم وقتل أهل الشرك ومحو أثرهم، فالاستفهام فى الحديث أخرج التمنى من دائرة البعد إلى دائرة الإمكان، وهذا ينبىء بمدى معاناة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أمر هذا الصنم، وشدة شوقه ورغبته فى إزالة أثره.

---

[١] (الكعبة اليمانية والكعبة الشامية) "هذا اللفظ فيه إيهام، والمراد: أن ذا الخلصة كانوا يسمونها الكعبة اليمانية، وكانت الكعبة الكريمة التى بمكة تسمى الكعبة الشامية، ففرقوا بينهما للتمييز، هذا هو المراد فيتأول اللفظ عليه، وتقديره يقال لها: الكعبة اليمانية، ويقال للتى بمكة الشامية" صحيح مسلم بشرح النووى: جـ١٦، صـ٢٥٣.

[٢] صحيح البخارى: ك المناقب، ب ذكر جرير بن عبد الله البجلى ــ رضى الله عنه ــ جـ٣، صـ١٣٩٠، صحيح مسلم: ك فضائل الصحابة، ب من فضائل جرير بن عبد الله ــ رضى الله ــ تعالى ــ عنه، جـ٤، صـ٢٣١.

[٣] فتح البارى: جـ٨، صـ٧١.

[٤] فتح البارى: جـ٨، صـ٧٣.

والاستفهام فى الحديث عن نسبة إراحة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من ذى الخلصة إلى جرير بن عبد الله، على جهة الأمر والتمنى، وفى العدول عن قولنا: هل تريحنى من ذى الخلصة؟ إلى ما عليه البيان النبوى، إيراز لما يدل على التجدد وهو الفعل فى معرض ما يدل على الثبوت والدوام وهو الاسم، وهذا أقوى وأبلغ فى الحث على الفعل وتمنى حصوله، إذ إنه يدل على أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يريد أن تكون راحته من ذى الخلصة بهدمه وتفريق من اجتمع حوله: أمرا ثابتا ومحققا، والتعبير بـ(هل تريحنى من ذى الخلصة؟) لا يؤدى هذا الغرض ولا يفيد هذا المعنى....

ويلاحظ أن المقام قد اقتضى هذا التعبير وتطلّب هذا العدول؛ لأن هذا البيت كان يمثل حملا ثقيلا وعبئا مقلقا للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ؛ لأنه يمثل بؤرة كفر يشرك فيها بالله ــ تعالى ــ، ومن هنا فإنه يتطلع إلى ما يشفى غيظه ويريح قلبه من ذى الخلصة، ولتكن تلك الراحة دائمة ثابتة، وهذا هو سر العدول عن الفعل بعد هل إلى ما عليه البيان النبوى الشريف، ولهذا نجد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مستبشرا مستريحا بعدما جاءته البشرى داعيا لجرير وقومه.

ويلاحظ أن الاستفهام بـ(هل) فى الحديث الشريف أكثر دلالة على المعنى المراد من الاستفهام بالهمزة، فقولنا: أأنت مرحى من ذى الخلصة؟، وإن كان دالا على الثبوت والدوام باعتبار كون الجملة اسمية، إلا أن الاستفهام ب(هل) أقوى دلالة على المعانى المرادة من حيث إن لـ(هل) مزيد اختصاص بالأفعال، فترك الفعل معها والعدول إلى الاسم يدل على مدى عناية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ واهتمامه وقصده إلى معنى الاسمية؛ ليبرز ما يدل على التجدد والحدوث فى صورة الأمر المحقق الثابت الدائم، ولهذا فإن البلاغيين[1] لا يستحسنون هذا العدول إلا من البليغ، إذ يقررون أن نحو: هل زيد منطلق؟ لا يحسن إلا من البليغ ، لأنه وحده الذى يلتفت الى هذه المزايا ويراعى تلك الدقائق، وهذا من دقائق الفروق التى يقع عليها أصحاب المعانى تمييزا بين استعمالات الحروف.

وعن على بن أبى طالب ، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ طرقه وفاطمة بنت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليلة، فقال: ألا تصليان؟ فقلت يا رسول

---

[1] ينظر: الإيضاح، جـ٢، صـ٣٨، والمطول: صـ٣٣١، وشروح التلخيص: جـ٢، صـ٢٧١.

الله: إ أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إلـيّ شيئا، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا)[١]

يشير الحديث الشريف إلى أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أراد أن يتفقد عليا وفاطمة ــ رضى الله عنهما ــ ويذكرهما بالطاعة، فطرقهمـا، والطـروق: الاتيـان بالليل، وعلى هذا فقوله: (ليلة) للتأكيد[٢]، وإنما كان هذا من النبى ــ صلى الله عليـه وسلم ــ حرصا منه على ابنته وابن عمه حتى لا يغفلا عن وقت الطاعة والتقرب إلى الله ــ تعالى ــ بالصلاة والدعاء.

والاستفهام (ألا تصليان؟) لا يراد به معناه الحقيقى من طلب الفهم وإنما يراد بـه العرض والتحضيض، ويتضمن معنى التمنى، فالنبى ــ صـلى الله عليـه وسـلم ــ يحضهما على الصلاة فى هذا الوقت من الليل ــ ولعله وقت السحر ــ ويتمنى أن لـو أجابا دعوته وقاما لله ــ عز وجل ــ يصليان، وهذا أمر محبوب لقلب النبى ــ صـلى الله عليه وسلم ــ فطاعة العباد لربهم وتقربهم إليه من أهم الأشياء التى يحبها النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويتمناها وبخاصة من أهل بيته وأقرب الناس إلى قلبه.

أما لماذا كان هذا الاستفهام متضمنا لمعنى التمنـى؟ فلأنـه أولا: طلـب لـشيء محبوب وهو قيام الليل للصلاة، وثانيا: لكونه بعيد الحصول، وسبب هذا البعد مرجعـه إلى استحباب النوم فى هذا الوقت ــ وقت السحر ــ بالذات، فهو وقت يحلو فيه النـوم ويصعب القيام، وقد يكون البعد مرجعه إلى بعض الأعذار كشدة البرد، أو قلة المـاء، أو ما يكون بين الزوجين....، ومن هنا فإن القيام لم يحدث ولم تتحقق الأمنية.

وفى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (ألا تصليان؟) من اللطف وجلب الامتثـال مـا ليس فى: صليا، يقول ابن حجر: "(ألا تصليان؟) قال ابن بطال: فيه فضيلة صـلاة الليـل وإيقاظ النائمين من الأهل والقرابة لذلك...،قال الطبرى: لولا ما علم النبـى ــ صـلى الله عليه وسلم ــ من عظيم فضل الصلاة فى الليل ما كان يزعج ابنته وابن عمه فـى وقـت جعله الله لخلقه سكنا، لكنه اختار لهم إحراز تلك الفضيلة على الدعة والسكون"[٣].

---

(١) صحيح البخارى: ك التهجد، ب تحريض النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ علـى صـلاة الليـل والتهجد من غير إيجاب، جـ١، صـ٢٣٩، والآية: ٥٤ من سورة الكهف، وصـحيح مـسلم: ك صلاة المسافرين، ب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى الصبح، جـ١، صـ٥٥٩.

(٢) ينظر فتح البارى: جـ٣، صـ١١.

(٣) ابن حجر: فتح البارى، جـ٣، صـ١١.

وعن هشام عن أبيه، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما كان فى مرضه جعل يدور فى نسائه ويقول: أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟ حرصا على بيت عائشة، قالت عائشة: فلما كان يومى سكن[1] .

فالحديث يشير إلى المرض الذى قُبض فيه النبى ــ صلى الله عليه وسلم وأنه كان فى مرضه يتنقل فى حجرات أزواجه، وأنه كان يقول فى مرضه: (أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟) استبطاء ليوم عائشة، واستطالة للزمن قبله .

والاستفهام فى الحديث وإن أفاد معنى الاستبطاء إلا أنه تضمن أيضا معنى التمنى؛ لأن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يحب عائشة ــ رضى الله عنها ويتمنى أن يقبض عندها حتى يدفن فى حجرتها، ومن هنا كان يكرر هذا الاستفهام، فلما علمت أزواجه بأمنيته وأنه يتطلع إلى يوم عائشة ويستبطىء مجيئه أذنّ له أن يمرض عندها.

وفى تكرار الاستفهام مبالغة وتأكيد للاستبطاء والتمنى، وهذا يشير إلى ما كان فيه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من شدة المرض، وأنه كان يقسم بين أزواجه فى المبيت، وكان يخشى أن يدركه الموت عند غير عائشة فيدفن فى غير حجرتها، ومن هنا أخرج هذه الأمنية فى صورة الاستفهام طمعا فى حصولها ورغبة فى تحققها، وقد تحققت أمنيته ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقبض فى يوم عائشة ودفن فى حجرتها.

ثانيا: التمنى بطريق الأمر.

الأمر: هو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء[2]، واستعمال صيغته فى التمنى يجسد معاناة المتمنِّى ورغبته فى نيل متمناه وشوقه إلى حصوله، وكثيرا ما يرد الأمر مرادا به التمنى فى البيان النبوى الشريف، نذكر من ذلك ما يأتى:

عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره: أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأبى طالب: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا

---

[1] صحيح البخارى: ك فضائل الصحابة، ب فضل عائشة ــ رضى الله عنها ــ جـ٣، صـ١٣٧٦.

[2] ينظر: المطول وحاشية السيد الشريف عليه، صـ٢٣٩.

طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟، فلم يزل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله....[1]

يصور الحديث الشريف معاناة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع عمه أبى طالب وشدة حرصه على إيمانه، وهذا الحرص نابع من حب متبادل بينهما، فالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحب عمه ويتمنى له الهداية؛ فهو الذى كفله بعد موت جده عبد المطلب، وهو الذى كان يمنعه من قريش، وكان أبو طالب يبادل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ نفس الحب، وما وصل أذى قريش إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا بعد وفاة أبى طالب.

وبمثل حرص النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على إيمان عمه كان المشركون أحرص على عدم إيمان أبى طالب ، ومن هنا نستطيع أن نفسر تواجد أثنين من عتاة المشركين عند أبى طالب فى مرض موته يزاحمون النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى دعوته لعمه أن ينطق بشهادة التوحيد.

وقول النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لعمه: (قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله) أمر ليس على حقيقته من طلب الفعل على جهة الاستعلاء؛ لأن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو صاحب المقام المحمود والخلق الرفيع يقدِّر عمه ولا يصدر له أمرا على جهة الاستعلاء، فضلا على أن دعوة الإسلام إنما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن هنا فقد تضمن الأمر معنى التمنى، وهذا المعنى يجسد شدة ما يعانيه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من عدم إيمان عمه ورغبته القوية فى إسلامه وهدايته؛ خوفا عليه من غضب الله ــ تعالى ــ ونار جهنم.

وقد أبرز النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمنيته هداية عمه فى صورة الأمر الممكن الوقوع الجائز الحصول، ووراء ذلك ما وراءه من الطمع فى تحقيق تلك الأمنية والرغبة فى حصولها، وقد مهد لها بهذا النداء (يا عم) والنداء يوقظ الذهن

---

(١) صحيح البخارى: ك الجنائز، ب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، جـ١، صـ٤٥٧، صحيح مسلم: ك الإيمان، ب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع فى النزع، جـ١، صـ٦٢.

وينبه المشاعر ويلفت النفس ويهيؤها فإذا ما جاء (الأمر) صادف نفسا مهيأة يقظة فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه بحس واع ونفس يقظة وذهن منتبه، والنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ينادى عمه، وهو قريب منه، وقد استعمل فى ندائه (يا) الموضوعة لنداء البعيد، لينبىء ببعد مكانة عمه وسمو منزلته، وهكذا كانت منزلة أبى طالب فى الدنيا، وهكذا أيضا خُلُق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع عمه الذى كفله ومنع منه أذى المشركين حتى ولو كان على غير دينه.

وكما تقوّى الأمر المراد به التمنى بالنداء تقوى أيضا بما جاء بعده من قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (أشهد لك بها عند الله)، ففى هذه العبارة حث لأبى طالب على قول لا إله إلا الله، وترغيب له فيها، وأيضا فى تكرار النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهذا الطلب مزيد من الحث لأبى طالب كى ينطق بكلمة التوحيد، وفى هذا ما فيه من حرص النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على إسلام عمه، ورغبته فى تحقق أمنيته.

ولقد كان أبو طالب فى صراع نفسى بين تحقيق أمنية ابن أخيه، وإنكار أبى جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقد قالا له: (أترغب عن ملة عبد المطلب؟) والاستفهام فيه للإنكار والنهى عما همّ به أبو طالب من الإيمان، وقد ذكروه بعبد المطلب احتيالا منهما على تثبيطه من تلبية رغبة النبى ــ صلى الله عليه وسلم وفى رواية مسلم أنه قال للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ (لولا أن تعيرنى قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك)[1]، فقد كان أبو طالب يعلم أن نطقه بكلمة التوحيد سيسعد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويريح فؤاده وتقرُّ به عينه، وتتحقق به أمنيته، ومع هذا مات على ما كان عليه، وكانت أمنية النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ محالة الحصول مع أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ صاغها فى صورة الأمر الممكن الحصول الجائز الوقوع؛ رغبة فى حصولها وتطلعا إلى وقوعها، فلله الأمر من قبل ومن بعد وهو القائل ــ عز وجل ــ: (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)[2].

---

(١) صحيح مسلم: ك الإيمان، ب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع فى النزع، جـ١، صـ٦٢.

(٢) القصص: ٥٦.

ثالثا التمنى بـ(لعل)

الأصل فى (لعل) أن يرجى بها ما هو قريب الحصول، وقد تأتى بمعنى التمنى كما فى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حكاية قصة أصحاب الغار الثلاثة: فعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: أنه قال: (بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فآووا إلى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله ــ تعالى ــ بها لعل الله يفرجها عنكم...)[1]

لا شك أن أصحاب الغار قد حاولوا زحزحة الصخرة بكل ما أوتوا من قوة وبشتى السبل فلم يفلحوا، وأيقنوا تماما باليأس من انفراجها، فزحزحتها عن فم الغار وخروجهم منه أمر محال بالنسبة لهم، ولكنهم آثروا حرف التوقع عند دعائهم (لعل الله يفرجها) بدلا من حرف التمنى؛ إبرازا للمستحيل فى صورة الممكن؛إبرازا لكمال عنايتهم بزحزحة الصخرة، وإظهارا لشوقهم الجارف الذى يخترقون به حجب المستحيل ويتخطون به عوائق العجز البشرى، وقد حقق الله ــ تعالى ــ لهم أمنيتهم؛ ببركة أعمالهم الصالحة التى عملوها فى رخائهم فانتفعوا بها فى شدتهم ففرج الله ــ تعالى ــ عنهم كربهم ، وزحزحت الصخرة وخرجوا يمشون.

ثالثا: التمنى بطريق الشرط :

اتضح فيما سبق أن من أعظم مواقع التمنى ما أفيد بأدوات ليست موضوعة للدلالة على التمنى أصالة فيصاحبها من ظلال معانيه الوضعية ما يكشف عن أغراض المتكلم وإيماءاته وذكر فى البحث من ذلك: أدوات الاستفهام وأنها تأتى مفيدة للتمنى؛ إبرازا للمتمنى المحال أو البعيد فى صورة الأمر الممكن الحصول، وكذلك التمنى بطريق الأمر، ومن ذلك أيضا (لو) الشرطية، فإنها تفيد عكس ما يفيده التمنى بطريق الاستفهام، فتجىء مفيدة للتمنى؛ إبرازا للمتمنَّى المحال أو البعيد فى صورة الممتنع؛ تجسيدا لليأس من حصوله، وإشعارا بعزة المتمنَّى، لأن الأصل فى (لو) الدلالة على الامتناع[2]، وفى البيان النبوى الكثير من شواهد التمنى بطريق الشرط نذكر منها ما يأتى:

---

(1) صحيح مسلم قصة أصحاب الغار جـ١٣، صـ٢٨٨.

(2) ينظر: ابن هشام، مغنى اللبيب، جـ١، صـ٣٣٧، د/ بدوى طبانة: معجم البلاغة العربية، جـ٢، صـ٨٥٩، د/ عبد العزيز عتيق: علم المعانى، صـ١١٤.

قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ: وارأساه، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: ذاكِ، لو كان وأنا حيٌّ فأستغفرَ لك وأدعوَ لك، فقالت عائشة: واثكلياه، والله إنى لأظنك تحب موتى، ولو كان ذاك لظللت آخر يومك معرسا ببعض أزواجك، فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ: بل أنا وارأساه، لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبى بكر وابنه فأعهد أن يقول القائلون، أو يتمنى المتمنون، ثم قلت يأبى الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبى المؤمنون[١]

فـ(لو) فى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (لو كان وأنا حى فأستغفرَ لك وأدعوَ لك) تفيد التمنى بدليل نصب المضارع ب(أن) مضمرة بعد الفاء المسبوقة بها، يقول ابن حجر: "وارأساه: هو تفجع على الرأس؛ لشدة ما وقع به من ألم الصداع...،(ذاكِ): إشارة إلى ما يستلزم المرض من الموت، أى: لو مُت وأنا حيٌّ، ويرشد إليه جواب عائشة، وقد وقع مصرحا به فى رواية عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ولفظه: (ثم قال: ما ضرك لو مت قبلى فكفنتك ثم صليت عليك ودفنتك...،وقولها: (والله إنى لأظنك تحب موتى) كأنها أخذت ذاك من قوله لها: (لو مت قبلى)...، وقوله: (بل أنا وارأساه) هى كلمة إضراب، والمعنى: دعى ذكر ما تجدينه من وجع رأسك واشتغلى بى...، ثم بدىء فى مرضه الذى مات فيه"[٢]

فالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتمنى أن لو ماتت عائشة ــ رضى الله عنها ــ قبله فحظيت بتكفينه وصلاته عليها ودفنه لها بيديه الشريفتين والدعاء لها، وتلك منقبة كانت تتطلع إليها نفوس الصحابة ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ، والنبى ــصلى الله عليه وسلم ــ يدرك أن الأجل لن يمهله حتى يفعل مع عائشة ــ رضى الله عنها ــ وهى الحبيبة إلى قلبه ــ ما تمنى لها، ومن هنا أتى بأداة الشرط (لو) التى تزيد المتمنى بعدا، وبالفعل لم تتحقق أمنية النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأنه كما قال ابن حجر: بدىء فى مرضه الذى مات فيه، أما رد عائشة ــ رضى الله عنها ــ فهو من قبيل ما طبع عليه النساء من الغيرة وحب التفرد بالزوج.

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: يُجمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا هذا،

---

[١] صحيح البخارى، باب الاستخلاف،حـ٢٢، صـ١٦٥.

[٢] فتح البارى، حـ صـ

فيأتون آدم فيقولون له: أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك الملائكة وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا فيقول لهم: لست هناكم فيذكر لهم خطيئته التى أصاب..[١]

فـ(لو) فى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حكاية على ألسنة الناس يوم القيامة فى حديث الشفاعة الطويل: (لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا هذا) تفيد التمنى بدليل نصب المضارع ب(أن) مضمرة بعد الفاء المسبوقة بها، فالناس يوم القيامة لعظم الأهوال التى تحيط بهم يتمنون أن لو استشفعوا إلى ربهم فيريحهم من أهوال يوم القيامة وفظائعهن وقد أتوا فى أمنيتهم بأداة البعد (لو)، إشعارا بعزة متمناهم وبعده، وهذا البعد مرجعه إلى نفوسهم وظروفهم وما يحيط بهم من أهوال وكروب تجعل الأمل فى تحقيق أمنيتهم مستحيلا، ومن هنا أتوا بأداة البعد (لو)، على أن أمنيتهم قد تحققت بشفاعة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكن بعد رحلة طويلة مع أنبياء الله ورسله كل واحد منهم يعتذر عن الشفاعة ويرشدهم إلى غيره.

لولا ولوما وهل وألا

قال السكاكى: "وكأن الحروف المسماه بحروف التنديم والتحضيض وهى: هلا وألا ولولا ولوما مأخوذة منهما، أى من (هل ولو) مركبة مع لا وما المزيدتين مطلوبا بالتزام التركيب التنبيه على إلزام هل ولو معنى التمنى، فإذا قيل: هلا أكرمت زيدا، وألا بقلب الهاء همزة، أو لولا أو لوما، فكأن المعنى: ليتك أكرمت زيدان متولدا منه معنى التنديم، وإذا قيل: هلا تكرم زيدا، أو لولا، فكأن المعنى: ليتك تكرمه، متولدا منهمعنى السؤال"[٢]

خالف السكاكى النحاة فى جعل التنديم والتحضيض لهذه الأدوات معنى متولدا عن التمنى وليس حقيقة فيها، فإذا استعملت مع الماضى كانت للتنديم؛ لأن التمنى طلب ولا يطلب الفائت، فيكون طلبه تنديما للمخاطب على تركتحصيله، وتوبيخا عليه، مثال ذلك قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لجابر بن عبد الله وقد كان حديث عهد بعرس: (أتزوجت؟ قلت: نعم، قال: أبكراً أم ثيبا؟ قلت: بل ثيبا، قال: فهلا بكرا تلاعبها

---

[١] صحيح البخارى : ك ب

[٢] مفتاح العلوم:١٧٢.

وتلاعبك...)[١]، فقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك) قالها النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تعقيبا على جواب جابر ــ رضى الله عنه ــ، وما فعله جابر من الزواج بالثيب قد فات ولا سبيل لرده؛ ولذا جاءت (هلا) متضمنة معنى التمنى؛ بغرض تأنيبه وتنديمه على ترك ما كان ينبغى ولومه على الزواج من الثيب، وترك الزواج ببكر تفيض حيوية ونشاطا، قادرة على الوفاء بحاجات مثله من الشباب، والتجاوب مع رغباته المشروعة.

ومثله ما جاء عن أم سلمة زوج النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن شاة لهم ماتت فلم يدركوا ذكاتها حتى ماتت، فبلغ ذلك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال: لوما إذ فاتتكم ذكاتها انتفعتم بإهابها[٢]

فقد جاءت (لوما) متضمنة معنى التمنى بغرض تنديمهم على ترك ما كان ينبغى أن يفعلوه من الانتفاع بجلد الشاة الميتة، وجاء تقديم الظرف: (إذ فاتتكم ذكاتها) زيادة فى التنديم، إذ كان يجب المبادرة والإسراع بهذا الانتفاع.

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[٣]

ف (هلا)فى الحديث الشريف دخلت على الفعل الماضى (وضعت) وأريد بها التحضيض على خلاف ما هو مقرر من أن طلب الفائت يتولد عنه التنديم، لكنك حين تتأمل هذا الموطن لا يخطئك أن الماضى وضع موضع المضارع؛ زيادة فى الحث وكمال الرغبة فى وقوع الفعل، فيظهره المتكلم فى صورة ما قد وقع، كما هو فى الحديث الشريف: (هلا وضعت هذه اللبنة)، فالظاهر أن يقال: هلا توضع هذه اللبنة، لكن الناس أخرجوه مخرج ما قد وقع؛ تنبيها على شدة الرغبة فى وقوعه، وتمنى حصول.

---

[١] صحيح البخارى: ك النكاح، ب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة، جـ٥، صـ٢٠٠٩.

[٢] تهذيب الآثار للطبرى: ج٧، صـ٣١٢.

[٣] صحيح البخارى: ك ب جـ صـ

وبعد: فقد تنوع التمنى بغير (ليت) فى البيان النبوى مصورا لحاجات النفوس ومبرزا أحوالا نفسية متباينة، فقد جاء بطريق الاستفهام والأمر والترجى؛ إبرازا للمتمنى المستحيل فى صورة الممكن القريب الحصول، لكمال العناية به والتطلع إليه، مثل ما رأينا فى قوله -صلى الله عليه وسلم- لجرير بن عبد الله البجلى -رضى الله عنه-: (هل أنت مريحى من ذى الخلصة؟)، وقوله لعلى وفاطمة -رضى الله عنهما-: (ألا تصليان؟)، وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟)، وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لعمه أبى طالب: (قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله)، وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فىحكاية قصة أصحاب الغار: (انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله ــ تعالى ــ بها لعل الله يفرجها عنكم).

وجاء التمنى فى بيانه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بطريق الشرط؛ إشعارا بعزة المتمنى وندرته، لأن المتكلم يبرزه فى صورة الممنوع، إذ إن (لو) تدل بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط، كما رأينا فى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لعائشة ــ رضى الله عنها ــ(لو كان وأنا حى فأستغفرَ لك وأدعوَ لك) وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حكاية على ألسنة الناس يوم القيامة فى حديث الشفاعة الطويل: (لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا هذا)، وقد ساهمت هذه الألفاظ التى لم توضع للتمنى أصالة فى إضافة طعم جديد للتمنى مما ساهم فى الكشف عن أغراض المتكلم وإيحاءاته.

والله ــ تعالى ــ أعلى وأعلم

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ختمت برسالته الرسالات سيدنا محمد الذى أعجز بفصاحته الفصحاء وأفحم ببلاغته البلغاء وبعد

فقد تناول البحث بلاغة التمنى فى البيان النبوى، وقد بدأ البحث بمقدمة وفيها أهمية الموضوع والدافع إليه، ثم المبحث الأول وتناولت فيه: مفهوم التمنى وقيمته البلاغية، ثم المبحث الثانى وتناولت فيه: التمنى بـ (ليت) بلاغته ومقاماته فى البيان النبوى، ثم المبحث الثالث وتناولت فيه: التمنى بغير (ليت) بلاغته وطرقه فى البيان النبوى، وبعد هذه الرحلة المباركة فى البيان النبوى توصلت الدراسة إلى عدة نتائج نذكر منها:

أولا : التمنى فى البيان النبوى نهج متميز فى بنائه المحكم وصياغته الدقيقة التى تقوم على الإيجاز البليغ بطى التفصيلات التى لا يتعلق بها غرض اعتمادا على السياق ووحى العبارات، وهذا راجع إلى أن التمنى طلب نفسى يصف آمالا حبيسة ورغائب لا سبيل إلى تحقيقها ولو كانت هذه الرغائب ممكنة فإنها عند المتكلم وفى حس نفسه مما يبعد تحقيقها، وهذه الرغائب وتلك الآمال غالبا ما يصحبها ضيق فى المقام أو ضيق نفسى وهذا مرجع الإيجاز فى الأمانى.

ثانيا : يُعدّ التمنى فى البيان النبوى من الأساليب التى تصور الأحوال النفسية للمتمنِّى والأغراض التى يرمى إليها من الشكوى والاستعطاف والاعتذار وما يجده من راحة النفس، فما التمنى سوى زفرات يطلقها مهموم أو نفثات مصدور يروح بها عما يجول فى صدره.

ثالثا : تنوع التمنى فى البيان النبوى تبعا لتنوع الناطقين به ومن حكى على ألسنتهم، فتارة يأتى على ألسنة رجال آخر الزمان، وتارة يأتى على السنة طالبى القرآن والعمل به، وتارة يأتى على ألسنة طالبى المال والعمل فيه بطاعة الله، وتارة يأتى على لسان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

رابعا : تعددت مظاهر التنوع فى التمنى فى البيان النبوى الشريف، فتارة تتعلق الأمانى بما مضى وفات وقته فتكون محالة الحصول، وتارة تتعلق بالحال والاستقبال فتكون ممكنة غير أنها فى نفس صاحبها بعيدة المنال عزيزة الحصول.

خامسا : تنوع التمنى فى البيان النبوى من حيث صياغته الدقيقة وبنائه المحكم وطرق أدائه العديدة، فتارة يؤدى بأداته الموضوعة له أصالة وهى (ليت)، وتارة يؤدى بطريق الاستفهام، وتارة يؤدى بطريق الأمر، وتارة يؤدى بطريق الترجى، وتارة يؤدى بطريق الشرط، وهو عندما يؤدى بغير أداته يكون له مذاق خاص، فالاستفهام والأمر يصور المتمنَّى المحال فى صورة الممكن الجائز الحصول، والشرط يجعل المتمنَّى أكثر إحالة وأشد بعداً.

سادسا : شواهد التمنى بـ(ليت) قليلة فى البيان النبوى، ومن هنا فلم أعثر فيما قرأت على غير الشواهد التى ذكرتها فى البحث، أما التمنى بغير (ليت) فهو كثير يصعب حصره، وقد أتيت فى البحث بنماذج له.

وبعد : فهذا جهدى فيما قصدت إليه من الكشف عن بلاغة التمنى فى البيان النبوى، فإن كنت قد أصبت ووفقت فيما قصدت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن تكن الأخرى فحسبى أننى بذلت جهدى قدر طاقتى والكمال لله وحده، وصدق القائل :

من الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وفى الختام أتوجه إلى الله ــ تعالى ــ أن يجعل عملى خالصا لوجهه الكريم (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) البقرة ٢٨٦.

إبراهيم حسن أحمد

أهم المصادر والمراجع

١ــ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.

٢ــ الأطول لعصام الدين، ط اسطنبول.

٣ــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعى، ط الثامنة، دار الفكر، القاهرة.

٤ــ الأقصى القريب فى علم البيان ــ محمد بن محمد بن عمرو التنوخى، طبعة السعادة، ١٣٢٧هـ .

٥ــ الإيضاح شرح تلخيص المفتاح ــ الخطيب القزوينى، تعليق/ عبد المتعال الصعيدى، طبعة محمد على صبيح، القاهرة، ١٣٩٢هـ .

٦ ــ البحر المحيط ــ أبو حيان الأندلسى، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م.

٧ــ البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى،ت محمد أبو الفضل إبراهيم، ط مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٩١هـ ١٩٧٢م

٨ــ البيان والتبيين، للجاحظ، ت عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط الخامسة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥.

٩ــ التحرير والتنوير ــ سماحة الشيخ/ الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.

١٠ــ تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى، دار السرور بيروت، بدون تاريخ.

١١ــ الجامع لأحكام القرآن ــ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار الريان للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

١٢ــ الجنى الدانى فى حروف المعانى ــ الحسن بن القاسم المرادى،تحقيق فخر الدين قباوة، والأستاذ/ محمد نديم فاضل، المطبعة الصليبية.

١٣ــ حاشية الدسوقى على المختصر (ضمن شروح التلخيص) دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

١٤ــ حاشية السيد على المطول ــ السيد الشريف الجرجانى، مطبعة أحمد كامل، القاهرة، ١٣٣٠هـ

١٥ــ حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى، دار صادر، بيروت.

١٦ــ دلالات التراكيب، الدكتور/ محمد أبو موسى، الطبعة الثانية،مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

١٧ــ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ــ السيد محمود الألوسى البغدادى، دار الفكر بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

١٨ــ شذور الذهب، لابن هشام، ت محمد محى الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

١٩ــ صحيح البخارى، ت مصطفى ديب البغا، دمشق، دار ابن كثير،ط ٤، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م

٢٠ــ صحيح البخارى بشرح الكرمانى، بيروت، دار إحياء التراث العربى، ط ٢، ١٤٠١هـ ١٩٨١م

٢١ــ صحيح مسلم: ت محمد فؤاد عبد الباقى، القاهرة، دار الحديث، ط أولى، ١٤١٢هـ ١٩٩١م

٢٢ــ عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح ــ بهاء الدين السبكى، (ضمن شروح التلخيص)، طبعة دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

٢٣ــ علم المعانى ــ الدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، الطبعة الأولى، ١٤٥٨هـ ١٩٨٨م.

٢٤ــ علم المعانى ــ الدكتور/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٢٥ــ علم المعانى ــ الدكتور/ فريد محمد بدوى النكلاوى وآخرون، بدون ناشر.

٢٦ــ عمدة القارى لبدر الدين العينى، القاهرة، ط مصطفى الحلبى،ط أولى، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م

٢٧ــ فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى، بيروت دار المعرفة

٢٨ــ فتح القدير للشوكانى، القاهرة، ط مصطفى الحلبى، ط أولى، ١٣٥١هـ

٢٩ــ القاموس المحيط ــ محمد بن يعقوب الفيروزابادى، دار العلم للجميع، بيروت بدون تاريخ.

٣٠ــ الكشاف ــ أبو القاسم جار الله الزمخشرى، دار الكتاب العربى، بيروت

٣١ــ لسان العرب ــ جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت.

٣٢ــ محاسن التأويل ــ محمد جمال الدين القاسمى، تعليق/ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى، القاهرة.

٣٣ــ المختصر على التلخيص ــ سعد الدين التفتازانى، (ضمن شروح التلخيص)، دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

٣٤ــ المطول على التلخيص ــ سعد الدين التفتازانى، مطبعة أحمد كامل، ١٣٣٠.

٣٥ــ معانى القرآن ــ أبو زكريا الفراء، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

٣٦ــ معجم البلاغة العربية ــ الدكتور/ بدوى طبانة، منشورات جامعة طرابلس، ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.

٣٧ــ مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ــ ابن هشام الأنصارى، تحقيق/ مازن المبارك، د/ محمد على حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.

٣٨ــ مفتاح العلوم ــ أبو يعقوب السكاكى، مطبعة: مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٥٦هـ ــ ١٩٢٧م.

٣٩ــ المقتضب ــ أبو العباس المبرد، تحقيق/ محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.

٤٠ــ من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم ــ الدكتور/ محمد الأمين الخضرى، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م.

٤١ــ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لمحى الدين النووى، ت الشيخ مأمون سيحا، بيروت، دار المعرفة، ط أولى، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م

٤٢ــ مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح ــ ابن يعقوب المغربى، (ضمن شروح التلخيص)، دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

٤٣ــ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ــ البقاعى، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ.

٤٤ــ النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ت طاهر أحمد الزاوى، القاهرة، عيسى الحلبى، ط أولى،١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٣م.

٤٥ــ وحى القلم، لمصطفى صادق الرافعى، بيروت، دار الكتاب العربى.